دراسات موضوعية (٤)



بقلم
د. عثمان بن جمعة ضميرية

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

دار الأندلس الخضراء

المملكة العربية السعودية - جدة
الإدارة: ص.ب ٤٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١
هاتف: ٦٨١٠٥٧٧ - فاكس ٦٨١٠٥٧٨

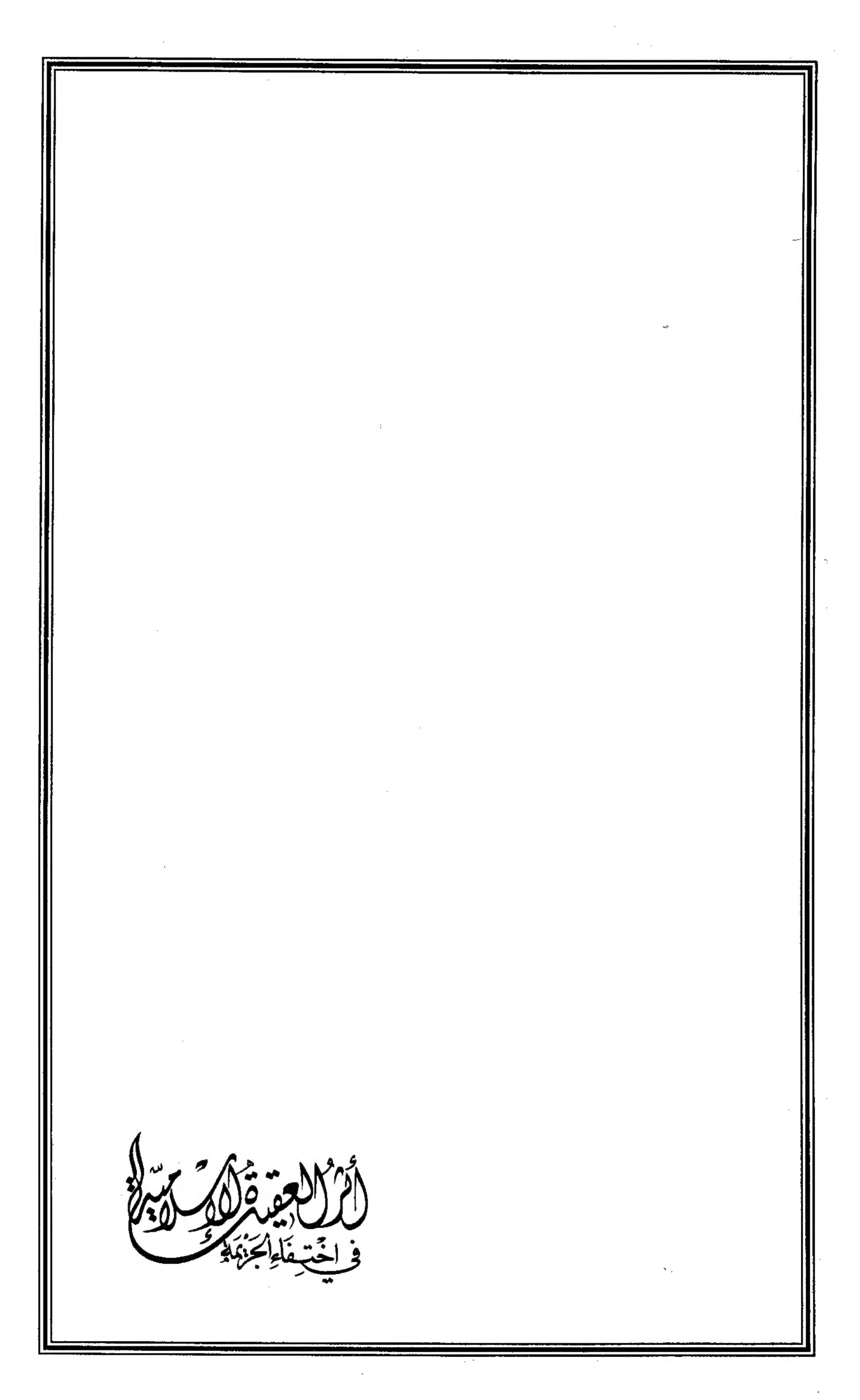
المكتبات • حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز السلامة التجاري
هاتف - فاكس ٦٨٢٥٢٠٩

• حي الثغر - شارع باخشب - سوق الجامعة التجاري
هاتف: ٦٨١٥٠٢٧ - فاكس: ٦٨١٠٥٧٨

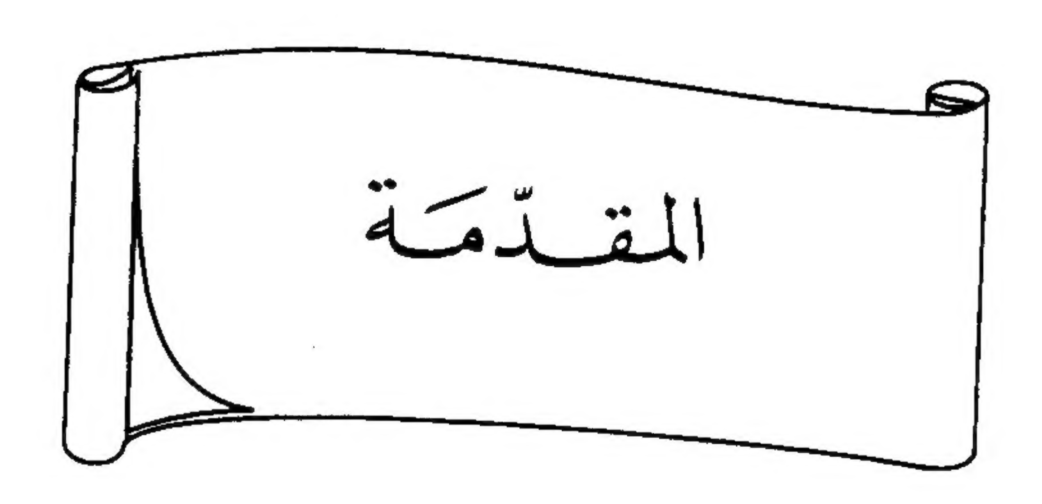
• فرع الرياض: حي السويدي الغربي - بجوار أسواق اليمامة
هاتف: ٤٣٣٣٧٣١ - فاكس ٤٣٣٣٦٥٧

http: //www. al-andalus-kh.com

E-MAIL : info @ al-andalus-kh. com


أثر العقيدة الإسلامية
في اختفاء الجريمة

بسم الله الرحمن الرحيم



المقدّمة

الحمد لله الذي أنزل على عبدهِ الكتابَ ولم يجعل له عِوَجاً. وصلى الله وسلم على سيدنا محمدٍ الذي بعثه الله في الأُمّيّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ.

وبعـد:

فإن الله سبحانه وتعالى قضت إرادته، ومضت مشيئته، في أن يخلق الإنسان ويجعله خليفة في هذه الأرض، ليعمرها وفق منهج الله وشريعته فتستقيم حياته في هذه الدنيا، وينال رضوان الله تعالى في الآخرة، ولذلك بعث الله تعالى رسله وأنبياءه، وأنزل عليهم كتبه وشرائعه، ليقوم الناس بالحق والعدل والقسط.

ومضت البشرية على هذا المنهج القويم، فكانت أُمّة واحدة على التوحيد والإيمان وعلى الاستقامة والخير، حتى وقع الخلاف والانحراف وتفرقت السّبل والمناهج ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢١٣).

فكانت الرسالة الإلهية التي تتنزّل وحياً على أنبياء الله ورسله ضروريةً للعباد لا غنى لهم عنها، وحاجتهم إليها فوق كل حاجة، فهي الروح والنور اللَّذَيْن لا يستغني عنهما الإنسان، فالروح سبب الحياة، والنور سبب الهداية في هذه الحياة:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾[1].

حال العالم قبل البعثة:

وكلما تنكَّبت البشرية الطريق وشردت عن دين الله ومنهجه، تردَّتْ في الهاوية السحيقة وأضاعت إنسانيتها وكرامتها ووجودها الحقيقي، وانقلبت الحياة إلى فوضى، والإنسانية إلى بهيمية.. واختلَّت القيم والموازين، وهذا ما نجد له شاهداً صادقاً في حال العالم قبل بعثة نبينا محمدٍ ﷺ، فلو رسمنا خريطة عقائدية أخلاقية للعالم عندئذ، لوجدنا اللون المظلم القاتم يظلّل مساحتها، إلا نقاطاً بيضاء متناثرة لا تكاد تظهر في حلكة السواد. ويصوِّر جعفر بن أبي طالب حال العرب قبل بعثة نبيّنا محمد ﷺ، في كلامه للنجاشي، حيث قال: «أيها الملِك، كنّا قوماً أهلَ جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف؛ فكنّا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا...»[2].

---

(١) سورة الشورى، الآية: (٥٣).

(٢) «سيرة ابن هشام»: ٣٣٦/١، وانظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: ٧٤/٣.

ويتحدّث العلاّمة أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي عن العصر الجاهلي فيرسم صورة للإنسانية في حال الاحتضار فيقول: «كان القرن السادس والسابع (لميلاد المسيح) من أحطّ أدوار التاريخ بلا خلاف؛ فكانت الإنسانية متدنّية منحدرة منذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردّي، وقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبّت بعدهم، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب فضلاً عن البيوت فضلاً عن البلاد، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا إلى الأديرة والكنائس والخلوات، فراراً بدينهم من الفتن وضنّاً بأنفسهم، أو رغبة إلى الدعة والهدوء، وفراراً من تكاليف الحياة وجدّها، أو إخفاقاً في كفاح الدين والسياسة والروح والمادة، ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا، وعاونهم على إثمهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل»[1].

وبكلمات موجزة: «جاء الإسلام وفي العالم كله ركام هائل من العقائد والتصورات، والفلسفات والأساطير، والأفكار والأوهام، والشعائر والتقاليد، والأوضاع والأحوال.. يختلط فيها الحق بالباطل، والصحيح بالزائف والدين بالخرافة، والفلسفة

---

(١) انظر: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للندوي، ص(٣٩).

بالأسطورة.. والضمير البشري - تحت الركام الهائل - يتخبط في ظلمات وظنون، لا يستقرّ فيها على يقين. والحياة الإنسانية - بتأثير هذا الركام الهائل - تتخبط في فساد وانحلال وفي ظلم وذُلّ وفي شقاء وتعاسة؛ لا تليق بالإنسان، بل لا تليق بقطيع من الحيوان! وكان التيه الذي لا دليل فيه، ولا هدى ولا نور، ولا قرار ولا يقين... هو ذلك التيه الذي يحيط بتصور البشرية لإلهها وصفاته، وعلاقته بالكون وعلاقة الكون به، وحقيقة الإنسان ومركزه في هذا الكون، وغاية وجوده الإنساني، ومنهج تحقيقه لهذه الغاية، ونوع الصلة بين الله والإنسان على وجه الخصوص.. ومن هذا التيه ومن ذلك الركام كان ينبعث الشر كله في الحياة الإنسانية، وفي الأنظمة التي تقوم عليه»[1].

أثر الإسلام في الأمة:

ومن ثم كانت رحمة الله تعالى بالإنسانية وهدايته لها، عندما بعث خاتم رسله وأنبيائه محمداً ﷺ، برسالة الإسلام، رسالة الهداية والتوحيد التي أشرقت شمسها من غار حراء، وأضاءت بأنوارها ربوع العالمين، فسعدت بها البشرية، وأتمّ الله بها النعمة على الأمّة، ورضيها لها ديناً، فجمعت هذه الرسالةُ الأمّةَ كلَّها بعد تفرُّق وتمزق وشتات، ومنحتْها العزة والكرامة الحقيقية بعد أن كانت مستذلَّة لشهواتها ولأعدائها، بصورة من الصور، ورفعتها إلى آفاق عالية ومكانة سامية بعد أن ارتكست

---

(١) انظر: «خصائص التصور الإسلامي» لسيد قطب، ص(٢٦).

في مهاوي الضلال والضياع، واستقامت على الجادة من الطريق، تسعى إلى هدف أعلى، بعد أن كانت تائهة لا تعرف غاية ولا هدفاً إلا ما هو قريب لا ترفع به رأساً؛ فكانت الأمّةَ القائدة الرائدة للأمم كلها، الشاهدة عليها بالحق، أمّة العدل والخير والوسط: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

أثر العقيدة في تكوين المجتمع وإصلاحه:

هذه الإلماعات السريعة الموجزة إلى أثر الإسلام في العرب وفي غيرهم بعامّة تومئ إلى أهمية العقيدة الإسلامية وأثرها في تكوين المجتمع الإنساني المسلم النظيف الذي يخطو الإسلام بخطوات سليمة متدرجة يقودها الوحي، ليقيمه مثالاً ومناراً للبشرية كلها، وذلك أن الإسلام يبدأ بإصلاح الفرد أولاً، حيث يغرس فيه عقيدته وإيمانه، ويربّي خلقه وسلوكه، ويهذّب نفسه ويزكيها، ثم ينطلق إلى دائرة أوسع هي دائرة البيت والأسرة، فيقيم دعائمها على أسس قوية متينة من الدين، فيؤثّر ذلك كله في بناء المجتمع الكبير والدولة التي تقوده، حيث ترفرف راية التوحيد، ويستظل الجميع بظلّها، فيشعرون بالأمن والطمأنينة والسعادة والاستقامة، وبذلك تتهيأ الفرصة المناسبة والبيئة النظيفة الصالحة التي تؤثّر في سلوك الأفراد والمجتمع، وعندئذ تكون العلاقة متبادلة في التأثير، فالفرد المسلم الصالح يؤثّر في المجتمع لأنه يتكون من مجموعة

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٤٣).

من الأفراد، والمجتمع الصالح أيضاً يؤثّر في تكوين الفرد وتنشئته وصلاحه بما يهيئ له من أسباب الخير والصلاح، وكل ذلك يؤثّر في تكوين الأسرة أيضاً.

موضوع البحث:

وفي ضوء هذه المعاني، ولأهمية العقيدة الإسلامية وأثرها، رأيت من واجبي الاستجابة لدعوة «الأمانة العامة لجائزة المدينة المنورة» للكتابة في موضوع «أثر العقيدة في اختفاء الجريمة» في إطار جائزة البحث العلمي لعام (١٤٢٠هـ). والله وليّ التوفيق[١].

الدراسات السابقة:

هذا، وفي حدود علمي، ورغم البحث والتفتيش لم أجد من الكتب والمؤلّفات ما تناول هذا الجانب بالذات، إلا بحوثاً قُدِّمت في «الندوة العلمية لدراسة تطبيق التشريع الجنائي الإسلامي وأثره في مكافحة الجريمة» في المملكة العربية السعودية، الرياض ١٦ ـ ٢١ شوال عام (١٣٩٦هـ) وقد نشرها مركز أبحاث مكافحة الجريمة بوزارة الداخلية بهذا العنوان في مجلّدين اثنين، وطبعت بمطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام (١٩٧٧م) بمصر. ثم صدرت لها طبعة أخرى مع بعض أبحاث وزيادات في سلسلة «التشريع الجنائي الإسلامي» التي أصدرتها

---

(١) كانت دعوة الأمانة العامة للترشيح للجائزة، فكان ذلك إشارة لفتت النظر إلى أهمية الكتابة في هذا الموضوع الذي نضعه بين أيدي القراء آملاً أن يكون فيه شيء من النفع والفائدة.

وزارة الداخلية في عام (١٤٠٥هـ) في الرياض. وهي كما يتضح من العنوان ومن استعراض البحوث تتناول أثر التشريع الإسلامي بعامّة في مكافحة الجريمة، ولكنها تضمنت بحثين اثنين في موضوعنا هذا بخاصة:

(أولهما) «أثر الإيمان والعبادات في مكافحة الجريمة» لفضيلة الشيخ منَّاع القطان، كان نصيب أثر الإيمان منه أربع صفحات، و**(الثاني)** «أثر التربية الإسلامية في مكافحة الجريمة» لفضيلة الشيخ محمد قطب، وفيه بعض اللمحات عن موضوعنا، ويتصل بهما بحث **(ثالث)** بعنوان «أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مكافحة الجريمة» لمعالي الشيخ ناصر بن حمد الراشد.

وقد نجد إشارات عابرة لهذا الموضوع في «بحوث تطبيق الشريعة الإسلامية» التي صدرت عن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام (١٤٠١هـ) وأحياناً في الكتب والمؤلّفات الخاصة «بالتشريع الجنائي الإسلامي»، وفي الكتب التي تناولت «الإيمان وأثره في الحياة» أو «التوحيد وآثاره» و «الإسلام وأثره في مكافحة الجريمة»، فهي قد تشير أحياناً إلى أثر العقيدة في مكافحة الجريمة وفي استقامة الفرد والجماعة، فمن الإنصاف التنويه بكل الجهود التي بُذلت سابقاً، ولأصحابها فضل السبق والريادة.

ورغم هذا فإن الموضوع لم يستوفِ حقَّه من البحث، ولم يفرده ـ فيما أعلم ـ أحد من الباحثين بكتابة علمية خاصة، فليكن ذلك ـ إذن ـ سبباً آخر في أهمية البحث، ومسوِّغاً لما نبذله فيه من جهد صادق متواضع.

خطة البحث:

وستكون خطة البحث ـ إن شاء الله تعالى ـ في إطار التوصيف التالي الذي طرحتْه الأمانة العامة الموقّرة حيث جاء فيه: «العقيدة الإسلامية منهج قويمٌ عِمادُه الكتاب والسنَّة، وما أُثِر عن السلف الصالح، وهي منهج حياةٍ عمّق جذورها في نفوس الأمّة الإسلامية الرسولُ ﷺ منذ أن حمل لواء الدعوة؛ فأشرقت الأرض بنور ربها الذي بدّد ظلمات الجهل والغواية والضلال. من تَمسَّك بها قولاً وعملاً لن يضلَّ أبداً، وبها تشرق نفسه وتزكو من أوضار المادة ورغبات الهوى والشيطان.

فما معالم العقيدة الصحيحة؟ وما المنهج الذي يعمل على غرسها في نفوس الناس؟ وما أثر الالتزام بالعقيدة في مكافحة الجرائم على اختلاف أشكالها وألوانها؟ والتزام المملكة العربية السعودية بما تقتضيه العقيدة وأثر ذلك»؟

وتحديد موضوع البحث وخطَّته بناءً على ذلك سيكون في تمهيد، وخمسة فصول، وخاتمة.

التمهيد: مفردات العنوان وتحديد المصطلحات.

الفصل الأول: الإسلام منهج كامل.

الفصل الثاني: معالم العقيدة الإسلامية.

الفصل الثالث: منهج بيان العقيدة وغرسها في النفوس.

الفصل الرابع: أثر الالتزام بالعقيدة في مكافحة الجرائم.

الفصل الخامس: أثر التزام المملكة بما تقتضيه العقيدة.

الخاتمـة: في نتائج البحث والتوصيات.

ولم نجد ضرورة لتقسيم كل فصل من هذه الفصول إلى مباحث ومطالب، كعادة الباحثين في الجوانب الجنائية من الفقه، وذلك حرصاً منّا على إعطاء صورة كاملة مترابطة دون تجزئة أو تشتيت لذهن القارئ من خلال كثرة التفريعات والتقسيمات، كما حرَّرنا موضوع البحث وخلَّصناه من الاستطرادات والمسائل التي قد يظهر أن لها صلة به، مع أن بحثها له مجال آخر، كأثر تطبيق الحدود في اختفاء الجريمة ومحاربتها، ونحو ذلك. . .

وجاء الالتزام بهذه الخطة تحقيقاً لما تتوخّاه الأمانة العامة الموقّرة، وما أومأتْ إليه من توصيف نقلناه آنفاً، إذ أن ذلك يحقق هدفاً تصبو إليه، وتوجِّه إلى أن معالجة الموضوع ينبغي أن تكون من خلاله.

منهج البحث وطريقته:

وتقتضي طبيعة البحث أن نسلك ـ إن شاء الله تعالى ـ منهجاً وصفياً استقرائياً استدلالياً، فهو منهج وصفيّ يستند إلى التحليل باستقراء الجزئيات وتصنيفها وترتيبها، مع التوثُّق والتأكد من صحة نسبة الأقوال وما يكتنفها من شروح وتفسيرات. وهو أيضاً منهج استنباطي يستخدم القواعد اللغوية والشرعية، وينطلق من الجزئيات إلى الحقائق العامة، ويعتمد على الأدلة المتنوعة، من النصوص الشرعية والأدلة الفطرية والعقلية، ويتخذ من الواقع

العملي شاهداً لما يذهب إليه[1].

وفي ضوء هذا المنهج كانت طريقة البحث بتتبُّع المسائل والجزئيات والاستدلال لكلٍ منها، وعندئذ لا بد من عزو الآيات الكريمة وتخريج الأحاديث النبوية تخريجاً علمياً إجمالياً مع الاجتزاء بالصحيحين أو أحدهما إن كان الحديث فيهما. كما أن التوثيق من المصادر الأصلية والمراجع المعتمدة أمر في غاية الأهمية لا يجوز لنا إغفاله، ولن نثقل الحواشي بمعلومات الطبع عن المراجع، حيث ستأخذ حظها من ذلك في الثَّبَت الخاص بها، وقد تدعو الحاجة إلى شرح بعض الألفاظ والمفردات، والإحالة على بعض المصادر في الحاشية لما له صلة بالمتن أحياناً. ونأمل أن تكون هذه الطريقة سليمة مجدية، وأن تحقق الهدف من المنهج الذي سلكناه، كما نأمل أن يكون أسلوب البحث متوازناً، بعيداً عن التعقيد والجفاف من جهة وبعيداً عن السطحية من جهة أخرى، فلا ينبو عن أذواق العلماء المتخصصين، ولا يستعصي على القارئ العادي.

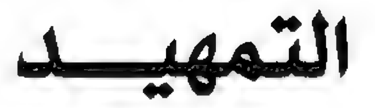
وبعد: فهذا جهد المُقِل، حقيقة لا تواضعاً، ما أحوجه إلى تصويب هنا وتعديل هناك، وتكرار نظر في هذا وذاك!. فهو صورة عن الضعف البشري والعجز والتقصير. وأنا راجع عن كل

---

(١) انظر في معنى المنهج وأقسامه: «المعجم الفلسفي» إصدار مجمع اللغة العربية، ص(١٩٥ ـ ١٩٦)، «قواعد أساسية في البحث العلمي»، د. سعيد الصيني، (٦١)، «أصول البحث العلمي» أحمد بدر، ص(٢٣٣) وما بعدها.

خطأ فيه إلى ما هو صواب. وأسأل الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، موافقاً لشرعه القويم، والحمد لله رب العالمين.

عثمان جمعة ضميرية



التمهيــد

- أهمية تحديد المصطلحات في البحث العلمي.
- تحليل مفردات العنوان ومصطلحاته:

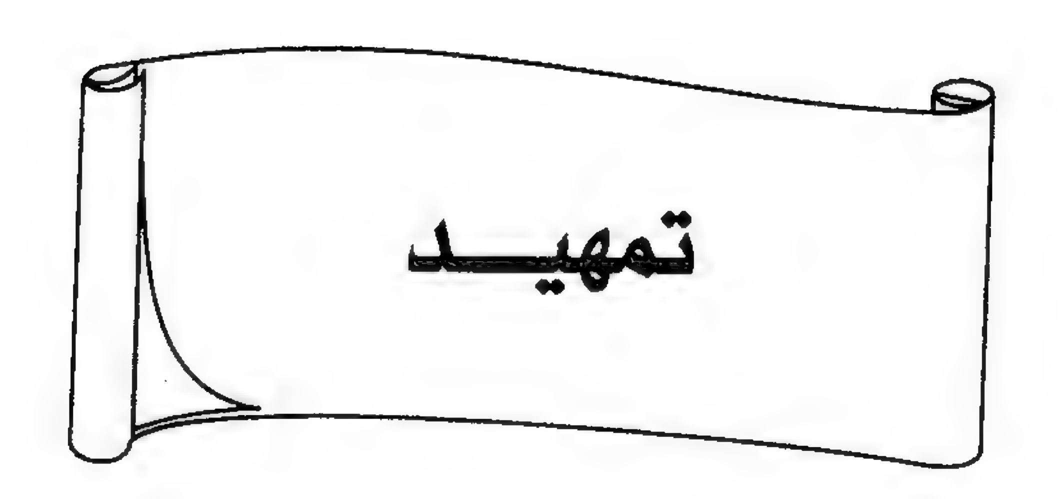
الأثر.

العقيدة.

الإسلام.

الاختفاء.

الجريمة.



نتناول في هذا التمهيد أهمية تحديد المصطلح في البحث العلمي، ثم نعرض بإيجاز معاني المفردات التي يتكون منها عنوان البحث.

أولاً: أهمية تحديد المصطلحات في البحث العلمي:

إن اللغة هي أداة التفكير، ووسيلة البيان والتفاهم، ولذلك يجب تحديد معاني ألفاظها ومفرداتها عندما تغدو مصطلحاً فنياً في علم من العلوم. وتظهر أهمية تحديد هذه المصطلحات في جملة أمور:

(أولها): اختلاف دلالة الكلمة ومعناها، وما قد يلحقها من تطور عند الاستعمال، حتى لا يقع الباحث أو القارئ في اللَّبس والخطأ والخلط في المفاهيم.

(وثانيها): أن كل مصطلح علمي ينشأ في بيئة فكرية وحضارية خاصة، يتأثر بمعطياتها، ويحمل في طيَّاته مدلولات فكرية، وينطوي على اتجاهات عقلية وحضارية تتفق مع شخصية هذه البيئة وذاتيتّها.

(وثالثها): أن تحديد المصطلحات والمفاهيم يحفظ على

الإنسان جهده ويمنع عقله من التبدُّد والضياع، ويعصم نفسه عن الهوى، كما أنه يجمع الأمّة ويوحّدها على منهج فكري واحد، ويعصمها من التفرق والشتات بما ينشئ فيها من تصورات محدّدة.

(ورابعها): أن ذلك يؤدي إلى رفع الخلاف الواقع في القضايا العلمية أو التي تتصل بمنهج البحث والاستدلال، إذ كثيراً ما يقع الخلاف بسبب الغفلة عن تحديد معنى اللفظ، فيستعمله بعضهم بمعنىً يختلف عن استعمال الآخرين، ويسلك كل منهم طريقاً في الاحتجاج لمذهبه أو رأيه مخالفاً لمذهب الآخر ورأيه، ولو حصل الاتفاق على تحديد معنى المصطلح لارتفع الخلاف وعاد الأمر بينهما إلى الوفاق.

لهذه الأسباب نجد أن المنهج العلمي في البحث يقتضي أن نحدد معاني مفردات عنوان هذا البحث، ببيان أصل كل جزء منه أو كل مفردة، ثم نخرج من ذلك كله بكلمة موجزة في المقصود منه جملةً. وبالله التوفيق.

ثانياً: تحليل مفردات العنوان:

جاء البحث تحت عنوان «أثر العقيدة الإسلامية في اختفاء الجريمة» فشمل خمسة مصطلحات أو مفردات، فكان من الأهمية البالغة أن نعرض معناها في أصل الاستعمال اللغوي، ثم نعرِّج على معناها الاصطلاحي عند العلماء.

١ ـ الأثـر:

الأثر في اللغة العربية: الهمزة والثاء والراء، له ثلاثة أصول: تقديم الشيء، وذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي. وهذا الأصل الثالث هو الذي يتصل ببحثنا هنا.

يقال: أَثَرَ الشيءَ يأثُره أثْراً، وأثارة وأُثْرة: تبع أثره. وأَثَرَ الحديث: نقله ورواه عن غيره. وأثر السيفَ وغيره أثراً، وأُثْرَةً: ترك فيه علامة يعرف بها. والأَثَر (بالتحريك) ما بقي من رسم الشيء، وضربة السيف، وهو أيضاً العلامة، وأثر الشيء بقيَّتُه. قال الخليل: والأثر بقية ما يرى من كل شيء، وما لا يرى بعد أن تبقى فيه عُلْقَة، وفي المَثَل «لا تطلب أثراً بعد عين»: يُضرب لمن يطلب أثر الشيء بعد فوت عينه، أو لمن يترك السهولة إلى الصعوبة.

والأثر أيضاً: ما يُحْدِثه الشيء. والأثر: الخبر المرويُّ والسنة الباقية. والجمع: آثار وأثور.

والتأثير: إبقاء الأثر في الشيء، يقال: أثَّر في الشيء تأثيراً: ترك فيه أثراً[١].

---

(١) انظر: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس: ١/٥٣ ـ ٥٦، «الصحاح» للجوهري: ٢/٥٧٥ ـ ٥٧٦، «ترتيب القاموس المحيط»: ١/١١٢ ـ ١١٣، «لسان العرب»: ٤/٥ ـ ١٠، «المصباح المنير»: ١/٤، «المعجم الوسيط»: ١/٥ ـ ٦، «مجمع بحار الأنوار» للفتني: ١/١٩ ـ ٢١، «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب، ص(٦٢)، «أساس البلاغة» للزمخشري: ١/٤.

وفي الاصطلاح: أطلق الأثر على أربعة معانٍ:

(الأول): بمعنى النتيجة، وهو الحاصل من الشيء. أو هو حصول ما يدل على وجود الشيء. ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾[1].

(والثاني): بمعنى العلامة.

(والثالث): بمعنى الخبر. ومنه قول عمر رضي الله عنه: «فما حلفت بعدها ذاكراً ولا آثراً» أي مخبراً باليمين عن غيري.

(والرابع): ما يترتب على الشيء. وهو المسمى بـ«الحكم» عند الفقهاء. والآثار عندهم هي: اللوازم المعلَّلة بالشيء[2].

وعلى هذا: فعندما نقول: أثر العقيدة الإسلامية... فإن هذا يعني ما يترتب على العقيدة وما يحصل بسببها من نتائج. وبين العقيدة وآثارها علاقة تبادلية فالعقيدة تترتب عليها آثارها حتماً، والآثار تدل على هذه العقيدة واستقرارها في النفس.

ب ـ العقيدة:

العقيدة في اللغة: العين والقاف والدال، أصل واحد يدل على شدٍّ وشدة وثوق. وإليه ترجع فروع الباب كلّها. من ذلك: عقد البناء. والجمع أعقاد وعقود. ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) سورة الروم، الآية: (٥٠).

(٢) انظر: «التعريفات» للجرجاني، ص(٢٣)، «كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي: ١/٩٥.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[1] وعَقدتُ الحبلَ أعقُدُه عَقْداً، وقد انعقد، وتلك هي العُقْدة، والعَقْد: عقد اليمين. وعُقْدةُ النكاح وكلِّ شيء: وجوبه وإبرامه. واعتَقَد الشيء: صَلُب، واعتقد الإخاء: ثَبَت. واعتقدت كذا: عَقَدْت عليه القلب والضمير، حتى قيل: العقيدة ما يدين به المرء. وله عقيدة حسنة: سالمة من الشك.

وبهذا نلاحظ أن مدار كلمة (عقد) على الوثوق والثبات والصلابة في الشيء. ومن هنا جاء تعريف العقيدة والاعتقاد حيث جاء في «المعجم الوسيط»: «العقيدة: الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده. والعقيدة في الدين: ما يقصد به الاعتقاد.. كعقيدة وجود الله وبعث الرسل والجمع عقائد»[2].

العقيدة في الاصطلاح الشرعي:

ومن هذا المعنى اللغوي أُخذ تعريف العقيدة في الاصطلاح الشرعي: فقال الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ في تعريف العقائد ـ بصيغة الجمع ـ:

«العقائد: هي الأمور التي يجب أن يصدِّق بها قلبك،

---

(١) سورة المائدة، الآية: (١).

(٢) انظر هذه المعاني اللغوية في: «معجم مقاييس اللغة»: ٨٦/٤ ـ ٨٧، «الصحاح»: ٥١٠/٢ ـ ٥١١، «أساس البلاغة»: ١٣١/٢ ـ ١٣٢، «تهذيب الأسماء واللغات»: ٢٧/٣ ـ ٢٨، «الكليات»: ٢٤١/١، «المصباح المنير»: ٤٢١/٢، «مفردات ألفاظ القرآن» ص(٥٧٦ ـ ٥٧٧)، «المعجم الوسيط»: ٦١٤/٢.

وتطمئنّ إليها نفسك، وتكوِّن عندك يقينياً لا يمازجه ريب ولا يخالطه شك»[١].

فهي إذن اعتقاد جازم مطابق للواقع لا يقبل شكاً ولا ظناً، فما لم يصل العلم بالشيء إلى درجة اليقين الجازم لا يسمى عقيدة، وإذا كان الاعتقاد غير مطابق للواقع والحق الثابت ولا يقوم على دليل، فهو ليس عقيدة صحيحة سليمة، وإنما هو عقيدة فاسدة كاعتقاد النصارى بألوهية ـ عيسى عليه السلام ـ وبالتثليث.

وهذه العقيدة الإسلامية الصحيحة هي التي كان العلماء يعبِّرون عنها بـ«الإيمان» أو «الفقه الأكبر» أو «الشريعة» وأحياناً «التوحيد» و«أصول الدين». وكلها تعني جانباً واحداً من جوانب هذا الدين الذي أكرمَنا الله تعالى به، وأنزله على نبينا محمد ﷺ وختم به الرسالات، وجعله دعوة عامة للناس كافة[٢]. وقد جعله النبي ﷺ مع الإسلام والإحسان، جعله «الدين» حيث قال في حديث جبريل لمّا سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان قال في آخره: «هذا جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم»[٣]. وقد جعل النبي ﷺ في هذا الحديث: الإسلام اسماً لما ظهر من الأعمال، وجعل الإيمان اسماً لما بطن من الاعتقاد، وذلك تفصيل لجملةِ

---

(١) انظر: «مجموعة رسائل الإمام حسن البنا» ص(٣٧٩).

(٢) انظر: «مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية» د.عثمان ضميرية، ص(٧٣) وما بعدها، ففيه استقراء للتطور التاريخي لتدوين علم العقيدة والأسماء التي أطلقها العلماء على هذا العلم منذ عهد السلف إلى يومنا هذا.

(٣) أخرجه البخاري: ١/١١٤، ومسلم: ١/٣٧ ـ ٣٨.

هي كلُّها شيء واحد، وجماعها الدين[1].

هذا الجانب من الدين هو العقيدة، وبتعبير القرآن الكريم هو «الإيمان»، الذي جاء الحديث عنه حديثاً مستفيضاً في كتاب الله تعالى وفي سنّة نبيه ﷺ.

جـ - الإسلام:

الإسلام في اللغة: أصل مادة اشتقاق الإسلام هي: السين واللام والميم. ومعظم هذا الباب يدل على الصحة والعافية، فالسلامة أن يسلم من العاهة والأذى. ومن هذا الباب: الإسلام، وهو الانقياد، لأنه يسلم من الإباء والامتناع.

والإسلام أيضاً: هو الدخول في السّلم. وهو أن يَسْلَم كلُّ واحد منهما من أن يناله من ألم صاحبه، وهو أيضاً: مصدر أَسْلَمْت الشيءَ إلى فلان: إذا أخرجته إليه.

وتستعمل كلمة الإسلام في اللغة العربية استعمالاً متعدِّياً ولازماً. أما استعماله متعدياً: فتقول: أسلمت الشيء إلى فلان، إذا أخرجته إليه. ومنه السَّلَم في البيع، أي السَّلَف فيه، وسلَّمه الله تعالى من الآفة تسليماً، وسلّمته إليه تسليماً، فتسلّمه، أعطيتُه فتناوله. وأسلم أمره إلى الله: سلَّمه.

وعند استعماله لازماً يكون معناه: الانقياد والدخول في السلْم، أي الاستسلام، كما أن الإصباح هو الدخول في

---

(١) «شرح السنة»: ١١/١، «معالم التنزيل»: ٦٢/١ كلاهما للإمام البغوي.

الصباح، والإحرام هو الدخول في الحرمة.

ومعنى الإسلام لازماً يرجع إلى معناه متعدياً، لأن من انقاد واستسلم للغير فقد سلَّم إليه نفسه، وألقى إليه بمقاليده[1].

وفي الاصطلاح الشرعي: كثيراً ما يراد بالإسلام ذلك المعنى اللغوي نفسه، بدون تصرف وكثيراً ما يراد به معنى أخصّ صار في العرف الشرعي حقيقة جديدة، حيث يراد به خصوص الانقياد لله ربِّ العالمين.

وضابط ذلك: أن ننظر في الموضع الذي يذكر فيه، فإن كان متعلقاً كأن قيل: «إسلام لكذا..» عرفنا أنه بالمعنى اللغوي البحت، أي مطلق الانقياد لما تعلّق به، وأما إذا ذكر هكذا بدون متعلَّق فالمراد به تلك الحقيقة الشرعية الخاصة وهي التصديق بالحقِّ والانقياد له.

وعندئذ فالإسلام يجمع معنيين؛ **أحدهما**: الانقياد والاستسلام، ومنه قول زيد بن عمرو بن نُفَيْل:

وأسلمتُ وجهي لمن أَسْلَمتْ   له المُزْنُ تحمِلُ عَذْباً زُلالاً

والثاني: إخلاص ذلك الانقياد وإفراده لله، كما في

---

(١) انظر: «معجم مقاييس اللغة»: ٣/٩٠، «الصحاح»: ٥/١٩٥٠ ـ ١٩٥٢، «لسان العرب»: ١٢/٢٨٩ ـ ٣٠٠، «مفردات ألفاظ القرآن» ص(٤٢١) وما بعدها، «غريب الحديث» للخطّابي: ٣/٤١١، «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» للعيني: ١/١٠٢، «المختار من كنوز السنة» د.محمد عبدالله دراز ص(٦٩).

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾[1]. وعنوانه قول: لا إله إلا الله.

وله معنيان: **(أحدهما)**: الدِّين المشترك، وهو عبادة الله وحده لا شريك له الذي بعث به جميع الأنبياء والمرسلين.

(والثاني): ما اختصَّ الله به نبينا محمداً ﷺ من الشرعة والمنهاج وهو الشريعة والطريقة والحقيقة. ولهذا المعنى مرتبتان:

إحداهما: الظاهر من القول والعمل، وهو المباني الخمس، أركان الإسلام.

والثانية: أن يكون ذلك الظاهر مطابقاً للباطن[2].

وعلى هذا أصبحت كلمة «الإسلام» علَماً على الدين الذي أرسل الله به نبينا محمداً ﷺ وختم به الرسالات، وجعله دعوة عامة للناس، ناسخاً لما سبقه من الشرائع، فلا يقبل من الناس غيره. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١١٢).

(٢) انظر بالتفصيل: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: ٦٣٥/٧ ـ ٦٣٦، «مفردات ألفاظ القرآن» ص(٤٢١ ـ ٤٢٤)، «المختار من كنوز السنّة» ص(٧٣)، «حجة الله البالغة» للدهلوي: ٨٦/١ ـ ٨٨، «الحاوي للفتاوى» للسيوطي: ٢١٥/٢ ـ ٢١٧، «الإسلام وعلاقته بالشرائع الأخرى» عثمان ضميرية ص(٣١ ـ ٤٨).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٩).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (٨٥).

د ـ الاختفاء:

الاختفاء في اللغة: الخاء والفاء والياء، أصلان متباينان متضادّان؛ فالأول السَّتْر، والثاني الإظهار. ومن المعنى الثاني ـ وهو المعنيُّ هنا ـ يقال: خَفِي الشيءُ يَخْفَى خَفَاءً وخِفْيَةً، وخُفْيةً: استَتَر. وأخفيته، وهو في خِفية وخفاء إذا ستَرْتَه وكتمته.

واستخفى وتخفَّى: استتر. وأمْرٌ خافٍ وخَفِيٌّ، والله عالم بالخَفِيَّات والخفايا. قال ابن قُتَيْبَةَ وتبعه الجوهريُّ: ولا يقال (اختفى) بمعنى توارى، بل يقال: استخفى. وكذلك قال ثعلبٌ: (استخفيت) منك أي تواريتُ، ولا تقل: اختفيت، وفي لغة حكاها الأزهريُّ قال: (أخفيته) ـ بالألف ـ إذا سترته (فَخَفِيَ) فهي لغة ليست بالعالية ولا بالمنكرة.

وعلى هذا: فإن الفعل (اختفى) مطاوع (أَخْفَيْتُه)، أي أخفيته فاختفى، كما تقول: أحرقته فاحترق. والمصدر منه: الاختفاء. وهو بمعنى خَفِي والاستخفاء: طلب الإخفاء[1].

ونخرج من هذه المعاني اللغوية في استعمال كلمة (خفي)

---

(١) انظر هذه المعاني في «معجم مقاييس اللغة»: ٢٠٢/٢، «الصحاح»: ٢٣٢٩/٦، «أساس البلاغة»: ٢٤٤/١، «المصباح المنير»: ١٧٦/١ .«لسان العرب»: ٢٣٥/١٤ ـ ٢٣٧ .«مفردات ألفاظ القرآن» ص(٢٨٩ ـ ٢٩٠)، «بصائر ذوي التمييز»، للفيروز آبادي: ٥٥٥/٢، «ترتيب القاموس المحيط»: ٨٦/٢ ـ ٨٧، «عمدة الحفاظ» ص(١٦٠)، «المعجم الوسيط»: ٢٤٧/١.

و(اختفاء) بنتيجة وهي: أن ذلك لا يعني أن الجريمة قد مُحيت من الوجود، إذ أن الخطأ والجريمة ظواهر بشرية موجودة، فكل بني آدم خطّاء، وإنما يعني ذلك: أن الجريمة غير ظاهرة ولا مستعلنٍ بها، وليست صفة عامة في المجتمع، فهي قد توارت واستترت فأصبحت لا تضرّ إلا صاحبها.

هـ ـ الجريمة:

الجريمة في اللغة: الجيم والراء والميم أصل واحد ترجع إليه سائر الفروع. فالجَرْم القطع، والجِرام ـ بالفتح والكسر ـ صرام النخل، والجُرَامةُ: ما سقط من التمر إذا جُرِم.

ومما يُرَدُّ إلى هذا الأصل: قولهم: جَرَم، أي كَسَب؛ لأن الذي يحوزه فكأنه اقتطعه. وفلانٌ جريمةُ أهله، أي كاسبهم. قال الشاعر يصف عُقاباً ترزقِ فرخَها وتكسب له:

جريمةُ ناهضٍ في رَأْسِ نِيَقٍ ترى لعظامِ ما جَمَعَتْ صَلِيباً[1]

ويقال: أَجْرَم فلانٌ واجترم، فهو مجرمٌ وجريمٌ، كَسَبَ، مثل اجترم. وأَجْرَم جَرَمَ عليهم وإليهم جريمة: جنى جناية.

والجُرْم: الذَّنْب: كالجريمة. والجمع: أجرام وجروم. أما الجريمة فتجمع على جرائم.

وإذا كانت كلمة الجُرْم والجريمة، بمعنى الكسب فهي اسم

---

(١) البيت لأبي خراش الهذلي في «أشعار الهذليين»: ٢/١٣٣، وهو من شواهد «اللسان» و«الصحاح» و«مجمل اللغة»، مادة جرم.

لكل ما يجتنيه المرء ويكتسبه إلا أنها خُصَّت في الاستعمال بالكسب غير المستحسن أو غير المحمود، أو بما يحرم دون غيره، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾[1]. أي لا يحملنكم حملاً آثماً بغضكم لقوم على أن لا تعدلوا، ولا يكاد يقال في عامة كلامهم للكسب المحمود. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾[2].

وعلى هذا فإن كلمة الجرم والجريمة ذات معنى عام في أصل الاستعمال اللغوي، ولكنه خصَّ عرفاً بكسب وقطع ممنوع أو آثم[3].

وقد جاءت مادة (جرم) في القرآن الكريم على ستة أوجه:

الأول: الجُرْم بمعنى الشرك، والمجرم بمعنى المشرك. كما في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾[4].

الثاني: الجُرْم بمعنى اعتقاد أهل القدر، والمجرم القدريّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾[5]. قال محمد بن كعب: هم القَدَريّة.

الثالث: بمعنى الفاحشة، أي عمل قوم لوط، والمجرم

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٨).

(٢) سورة المطففين، الآية: (٢٩).

(٣) «معجم مقاييس اللغة»: ١/٤٤٥ ـ ٤٤٦، «مجمل اللغة»: ١/١٤٨.

(٤) سورة المعارج، الآية: (١١).

(٥) سورة القمر، الآية: (٤٧).

اللُّوطِيُّ، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[1].

الرابع: بمعنى حمل العداوة كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ ﴾[2]. أي لا يحملنّكم خلافي...

الخامس: لا جَرَم، بمعنى حقاً، كما في قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾[3].

السادس: بمعنى الإثم والذنب والزلّة، كما في قوله تعالى: ﴿فَعَلَىَّ إِجْرَامِى ﴾[4]. أي فعليَّ إثمي[5].

وأما في اصطلاح علماء الشريعة: فإن الجريمة ترادف عندهم الجناية، وهي كل فعلٍ محظور شرعاً، يعاقَب عليه بحدٍّ أو تعزير. ولذلك عرّف الماوَرْدِيُّ الجرائم ـ بصيغة الجمع ـ بأنها: «محظورات شرعية زجر الله تعالى عنها بحدٍّ أو تعزير»[6].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (٨٤).

(٢) سورة هود، الآية: (٨٩).

(٣) سورة هود، الآية: (٢٢).

(٤) سورة هود، الآية: (٣٥).

(٥) انظر هذه المعاني في: «الوجوه والنظائر» للدامغاني: ١/٢٤٢ ـ ٢٤٣، «بصائر ذوي التمييز» للفيروز آبادي: ٢/٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٦) «الأحكام السلطانية» للماوردي ص(٢١٩) والحدُّ هو عقوبة مقدّرة شرعاً. وقد يضاف في التعريف: وجبت حقاً لله، وعندئذ يخرج القصاص، لأنه وجب حقاً للعبد، والتعزير عقوبة تفويضية فهو تأديب دون الحد، أو تأديب على معصية لا حدَّ فيها ولا كفارة غالباً. انظر: «الجنايات في الفقه الإسلامي» عثمان ضميرية ص(٢٩ ـ ٧٨).

وقال الجُرْجَانيُّ: هي كل فعل محظور يتضمن ضرراً على النفس، أو غيرها[1].

والمحظورات: هي إما إتيان فعل منهي عنه، أو ترك فعل مأمور به. وقد وصفت المحظورات بأنها شرعية، إشارة إلى أنه يجب في الجريمة أن تحظرها الشريعة.

فالجريمة إذن هي إتيان فعلٍ محرَّم معاقبٍ على فعله، أو ترك فعلٍ محرَّمِ الترك معاقَبٍ على تركه. أو هي فعل أو ترك نصَّت الشريعة على تحريمه والعقاب عليه.

ويتبين من تعريف الجريمة: أن الفعل أو الترك لا يعتبر جريمة إلا إذا تقررت عليه عقوبة. ويعبِّر الفقهاء عن العقوبات بالأجزية، ومفردها جزاء فإن لم يكن على الفعل أو الترك عقوبة فليس بجريمة[2].

وهذا المعنى للجريمة، هو الذي ذهبت إليه القوانين الوضعية الحديثة، فهذه القوانين تعرف الجريمة بأنها إما عمل يحرِّمه القانون، وإما امتناع عن عمل يقضي به القانون. ولا يعتبر الفعل أو الترك جريمة في نظر القوانين الوضعية إلا إذا كان معاقباً عليه طبقاً للتشريع الجنائي[3].

---

(١) انظر: «التعريفات» للجرجاني ص(١٠٧) وهو أيضاً مختصر في «الكليات» للكفوي ٢/١٣٥.

(٢) «التشريع الجنائي الإسلامي» عبدالقادر عودة: ٦٦/١ .وانظر: أيضاً «الجريمة» للشيخ محمد أبو زهرة ص(٢٤ ـ ٢٥).

(٣) المصدر السابق نفسه.

الخلاصة:

ونخرج من هذه المصطلحات إلى أن هذا البحث يُعْنَى بما يترتب على العقيدة الإسلامية، وإيمان المسلم بها إيماناً جازماً، من استتار للجريمة وعدم ظهورها في المجتمع، فإن الإيمان يحمل صاحبه على الاستقامة والبعد عن الجريمة حتى وإن ضعف أحياناً أمام الدوافع التي تدفعه للوقوع في المحظور، فإنه لا يستعلن بذلك ولا يجاهر به، وما أسرع ما يندم على فعله فيقلع عنه ويتوب إلى الله تعالى، فالإيمان هو الوقاية من الجريمة، وهو العلاج بعد وقوعها.

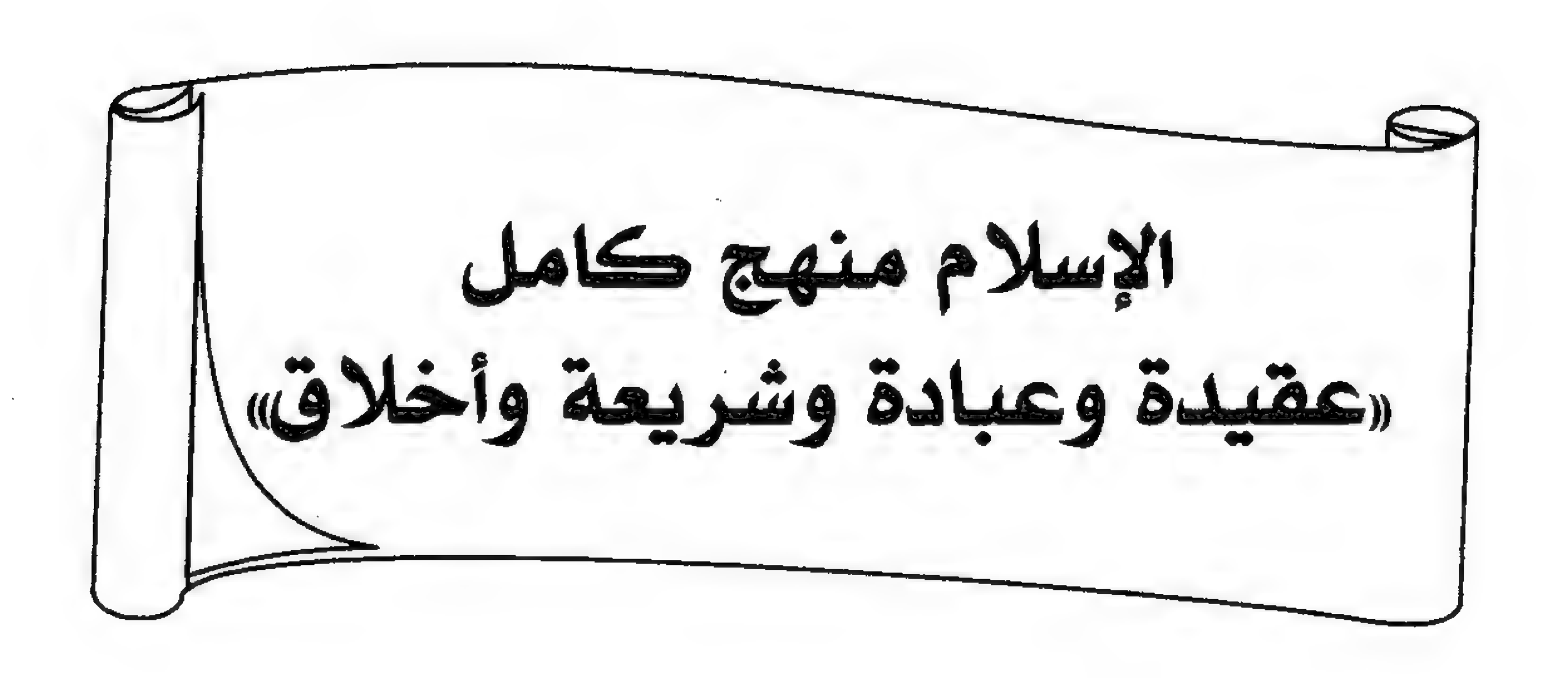
وعلى بركة الله تعالى نعالج هذا الموضوع، ومنه نستمدُّ العون والتوفيق.



الفصل الأول

الإسلام منهج كامل

- الإسلام بمعناه العام.
- منهج الصحابة في فهم الدين.
- الدين في حديث الرسول ﷺ.
- الرسول يدعو إلى الدين بجملته.
- الإسلام دين متكامل.
  - العقيدة.
  - العبادة.
  - الشريعة.
  - الأخلاق.
  - الترابط والتكامل.



الإسلام بمعناه العام:

ألمحنا إلى أن الله سبحانه وتعالى قد تكفَّل ـ رحمةً منه وفضلاً ـ بهداية البشرية عندما أرسل رسله وأنزل عليهم الكتب والشرائع، فكان ذلك الموكب الكريم من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، من لدن آدم إلى أن ختموا بمحمد ﷺ، وقد بعثهم الله تعالى جميعاً بدين واحد هو الإسلام.

والإسلام بمعناه العام هو إسلام الوجه لله تعالى، بمعنى التذلل لطاعته والإذعان لأمره، والخضوع الكامل له بالجوارح، ظاهراً وباطناً، والخلوصُ من الشرك بكلِّ صوره وألوانه. قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾[1].

وقد حكى الله تعالى في كتابه الكريم هذه الحقيقة، فأخبر أن الإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين من أوّلهم إلى

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١١٢).

آخرهم، وهو دين من اتَّبعهم من الأمم السابقة[1]. والنصوص القرآنية في ذلك كثيرة متضافرة فقال الله تعالى حاكياً عن نوح عليه السلام قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٧٢﴾[2].

وقال عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[3].

وقال عن يعقوب وبنيه: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٣﴾[4].

وقال عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤﴾[5].

وقال عن عيسى عليه السلام وأتباعه: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ

---

(١) انظر: «تفسير الإمام الطبري»: ١٤/٢٥ ـ ١٥، «تفسير ابن كثير»: ١٦٧/٢ ـ ١٩٩، ٤٢٦، «النبوات» لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص(٨٧)، «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» له أيضاً: ٥/١ و١١، ٣٢/٢ ـ ٣٥، «الإيمان» له أيضاً: ٢٤٦ وما بعدها، «شرح العقيدة الطحاوية» ٧٨٦/٢ ـ ٧٨٧، «مدارج السالكين» لابن القيم: ٤٧٥/٣ ـ ٤٧٦، «تثبيت دلائل النبوة» للقاضي عبدالجبار بن أحمد الهمداني: ١٠٨/١، «خصائص التصور الإسلامي» لسيد قطب: ٢١٤ ـ ٢١٦.

(٢) سورة يونس، الآية: (٧٢).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٢٨).

(٤) سورة البقرة، الآية: (١٣٣).

(٥) سورة يونس، الآية: (٨٤).

ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾[1].

وهذا الجانب الذي اتفقت جميع الرسل في الدعوة إليه، هو التوحيد وأصول الإيمان، وأصول الشرائع والطاعات، وأصول البر والأخلاق.

الإسلام بمعناه الخاص:

ثم خصَّ الله تعالى نبيّنا محمداً ﷺ بما أنزله عليه وهداه إليه من الشرعة والمنهاج، وبذلك كان الدين في أصله واحداً، وإن كانت الشرائع مختلفة في الأوامر والنواهي، ويعبَّر عن هذا بقاعدة «توحيد المِلّة وتعدُّد الشرائع»[2]. فأصبحت كلمة «الإسلام» اليوم إذا أُطلقت إنما يراد بها الدين أو الإسلام الذي بعث الله تعالى به محمداً ﷺ، المتضمن لشريعة القرآن، وهو الدين الذي أكمله الله تعالى، وأتمَّ به النعمة، ورضيه لنا ديناً فلا يقبل من الناس غيره، وبه ختم الله الرسالات السابقة وجعله ناسخاً لما سبق ومهيمناً عليه[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: (٥٢، ٥٣).

(٢) وهو عنوان رسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية طبعت مفردة مستقلة، وهي أيضاً ضمن «مجموعة الرسائل المنيرية»: ١٢٨/٣ ـ ١٦٥، وهي في «مجموع الفتاوى»: ١١٢/١٩ ـ ١١٣، وراجع الإسلام وعلاقته بالشرائع الأخرى، تأليف عثمان ضميرية، ص(٣٥ ـ ٤١).

(٣) انظر: «الرسالة التدمرية» لابن تيمية ص(١١٣) وهي في «مجموع الفتاوى»: ١/٣ ـ ١٢٨.

منهج الصحابة في فهم الدِّين:

نهض رسول الله ﷺ بأعباء الدعوة، وصدع بها، منذ أن أمره الله تعالى بذلك، حيث قال: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾[1].

واستمر نزول الوحي عليه ﷺ، في مكة المكرمة ثلاثة عشر عاماً، لم يعرف لها التاريخ مثيلاً في التجرُّدِ والإخلاص، والصبر والجهاد والمجاهدة، والتربية الإيمانية العميقة، فنشأت القاعدة الصُّلبة التي ربَّاها النبي ﷺ على عينه، يقود خطاها الوحي الإلهي في كل لحظة من اللحظات، ويأخذ بيدها لتكون على الجادة من الطريقِ الطويل، ثم انتقل بها إلى حيث تجد التطبيق العملي لمبادئ الإسلام كاملة في المدينة بعد أن أراد الله لهم الخير فساقهم ليبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة، التي كانت حجر الأساس في بناء الدولة الإسلامية، التي عمل لها النبي ﷺ، بوحي من ربه تبارك وتعالى.

حتى إذا ما أكمل ـ ﷺ ـ البناء وأتمَّ البلاغ والتحق بالرفيق الأعلى كان لهذه القاعدة ولهذه الأمّة شأن أي شأن في تاريخ البشرية كله.

كل هذا، والصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يتلقَّون من النبي ﷺ أحكام هذا الدين وتعاليمه وآدابه، فيما يتعلق بالإيمان ومعرفة الله سبحانه وما ينبغي له من الطاعة، وفي كيفية العبادة

(١) سورة الحجر، الآية: (٩٤).

وأداء الشعائر، وفي شتى أنواع المعاملات في مناحي الحياة الفردية والاجتماعية، وفي الأخلاق والآداب والسلوك، ثم في علاقة الأمّة بغيرها من الأمم والمِلَلِ والشرائع الأخرى... دون أن يكون هناك تفكير في تقسيم هذه الأحكام أو تصنيفها وتبويبها ليكون هذا عقيدة وذاك عبادة، وثالث اقتصاداً أو سياسة... إلى غير ذلك من هذه التقسيمات الحادثة التي اقتضتها ضرورة البحث والتأليف، ودون أن يكون هناك تفريق بينها في الالتزام والعمل بمقتضاها، فهي كلها أحكام منزَّلة من الله ينبغي عليهم أن يتلقَّوها بالتسليم، وأن يسارعوا إلى الامتثال لها ليحققوا بذلك مقتضى إيمانهم بالله واستسلامهم لشرعه ودينه، وليدخلوا في الدين كافة.

الدِّين في حديث الرسول ﷺ:

ولذلك نجد الإسلام والإيمان والإحسان في سياق واحد، يعبّر عن الدين كله، كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، فأقبل حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفَّيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ:

«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج

البيت إن استطعت إليه سبيلًا» فقال: صدقت. قال: فعجبنا له، يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: **«أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»** قال: صدقت.

قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: **«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**.

قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: **«ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»**.

قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: **«أن تلد الأَمَة ربَّتها، وأن ترى الحفاة العراة، العالة، رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»**.

قال: ثم انطلق: فلبث مليّاً ثم قال لي: **«يا عمر أتدري من السائل؟»**.

قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **فإنه جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم»**[1].

فقد جعل النبي ﷺ في هذا الحديث الإسلام اسماً لما ظهر من الأعمال، وجعل الإيمان اسماً لما بطن من الاعتقاد، وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان، أو التصديق بالقلب ليس من الإسلام، بل ذلك تفصيلٌ لجملة هي كلُّها شيء واحد

---

(١) أخرجه البخاري: ١/١١٤، ومسلم: ١/٣٧، ٣٨، واللفظ له.

وجماعها الدين، ولذلك قال: «**فإنه جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم**»[1].

الرسول يدعو إلى الدين بجملته:

وقد كان النبي ﷺ يدعو الناس لهذا الدين بجملته، لأنه «**لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه**»[2].

فقد جاء وفد ثقيف إلى النبي ﷺ، ومكثوا أياماً يغدون على النبي ﷺ، وهو يدعوهم إلى الإسلام... فقال له عبدياليل: هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا؟

فقال: «**إن أنتم أقررتم بالإسلام أقاضيكم، وإلا فلا قضية ولا صلح بيني وبينكم**».

فقال عبدياليل: أفرأيت الزنا؟ فإنا قوم نغترب ولا بدَّ لنا منه؟

قال: «**هو عليكم حرام**»، فإن الله تعالى يقول:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[3].

---

(١) انظر: «شرح السنة» للبغوي: ١/١١، تفسير البغوي: ١/٦٢.

(٢) نص جواب الرسول ﷺ لجماعة من شيبان، بعد أن عرض عليهم الإسلام وسمع منهم مقالتهم. في قصة طويلة أخرجها الحاكم وأبو نعيم في «الدلائل»: ١/٩٩، والبيهقي في «الدلائل» أيضاً: ٢/٤٢٦، وذكرها ابن كثير في «البداية والنهاية»: ٣/١٤٣ ـ ١٤٥، وقال: هذا حديث غريب جداً، وقد ورد من طرق، وحسّنه القسطلاني. وانظر: «الروض الأُنف» للسهيلي: ١/٢٦٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: (٣٢).

قال: أفرأيت الرِّبا؟

قال: **«هو عليكم حرام»**.

قالوا: فإن أموالنا كلها رباً؟

قال: **«لكم رؤوس أموالكم»**، إن الله تعالى يقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾[1].

قالوا: أفرأيت الخمر؟ فإنها عصير أعنابنا، ولا بُدَّ لنا منها؟

قال: **«إن الله قد حرَّمها»**، وقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾[2].

وبعد إسلامهم سألوا النبي ﷺ أن يدع لهم الطاغية ـ وهي اللاّت ـ لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ﷺ أن يدعها لهم شيئاً مسمًّى. وإنما كانوا يريدون بذلك ـ فيما يظهرون ـ أن يَسلموا ـ بتركها ـ من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروِّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام. وما زالوا يسألونه أن يتركها لهم سنةً سنةً، ويأبى عليهم، حتى سألوا شهراً واحداً، بعد مقدمهم، عليهم أن يدعها شيئاً مسمّى فسألوه أن يعفيهم من هدمها بأيديهم، فأعطاهم ذلك.

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٧٨).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٩٠).

وقد كانوا سألوه ـ مع ترك الطاغية ـ أن يعفيهم من الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: **«إنه لا خير في دين لا صلاة فيه»**[1].

الإسلام دين متكامل:

وإذا كان هذا الدين قد بلغ ذروة الكمال والتمام والشمول، فإن الإسلام كل لا يتجزأ ينبغي أن يؤخذ جملة، وإلا فما هو بدين الله الذي أراده ورضيه للبشر ديناً. وفي هذا يقول الإمام الشاطبي رحمه الله:

«إن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتّبة عليها، وعامّها المرتّب على خاصّها، ومطلقها المحمول على مقيَّدها، ومجملها المفسَّر بِبَيِّنها إلى ما سوى ذلك من مناحيها.

فإذا حصل للناظر من جملتها حكم من الأحكام، فذلك الذي نظمت به حين استنبطت، وما مَثَلها إلا مثل الإنسان الصحيح السويّ، فكما أن الإنسان لا يكون إنساناً حتى يستنطق فينطق، فلا ينطق باليد وحدها، ولا بالرجل وحدها، ولا بالرأس وحده، بل بجملته التي سمّي بها إنساناً، كذلك الشريعة لا

---

(١) انظر: «مسند الإمام أحمد»: ٣٤١/٣، «سيرة ابن هشام، مع الروض الأُنف»: ٣٢٦/٢، «زاد المعاد»: ٤٩٩/٤ .وقارن بتخريج الألباني لأحاديث «فقه السيرة» للغزالي ص(٤٥٠).

يطلب منها الحكم على حقيقة الاستنباط إلا بجملتها، لا من دليل منها أي دليل كان، وإن ظهر لبادي الرأي نطق ذلك الدليل، فإنما تنطق توهماً لا حقيقة، من حيث علمت أنها يد إنسان، لا من حيث هي إنسان، لأنه محال»[1].

ومن الأهمية البالغة أن يتعرف المسلم على هذا الإسلام الذي رضيه الله تعالى لنا ديناً، يتعرف عليه على أنه دين شامل كامل، لم يترك جانباً من جوانب حياة الإنسان إلا وقد نظمه، ووضع له أحكاماً خاصة، فالشريعة الإسلامية تحدد للمكلفين أحكاماً في أقوالهم وأفعالهم، ولا يَنِدُّ عنها شيء.

وقد أشار علماؤنا رحمهم الله إلى هذا التقسيم لأحكام الدين، الذي دعت إليه حاجة التأليف العلمي والتنظيم لمباحثه. فقال ابن عابدين رحمه الله:

«اعلم أن مدار الدين على الاعتقادات والآداب والعبادات والمعاملات والعقوبات»[2].

وهذه النظرة الكلية الشاملة للإسلام تجعلنا نقف على أربعة شعب: تكوِّن مجموع هذا الدين الذي أنزله الله تعالى: عقيدةً، وعبادة، وشريعة، ومنهجاً أخلاقياً..

---

(١) «الاعتصام» للشاطبي: ١/ ٢٤٥: دار الفكر بيروت.

(٢) انظر: «حاشية ابن عابدين على الدر المختار»: ٧٩/١.

أ ـ العقيدة:

فالعقيدة تتضمن الحقائق الكبرى التي دعا إليها القرآن الكريم دعوة ملحَّة متكررة بطرق شتى، وكذلك كان عمل الرسول ﷺ، ولا سيما في المرحلة المكية من الدعوة، موجَّهاً إلى أسس العقيدة والإيمان بها، وحتى عندما بدأت المرحلة المدنية بما فيها من تشريع وأحكام كانت العقيدة محوراً لهذه الأحكام ومنطلقاً لها.

وتقوم هذه العقيدة على أساس شهادة «أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» وما يتفرع عنها من أركان ومقتضيات، كالإيمان بالله، والملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى، وكالنظرة الكلّيّة لهذا الوجود كله، وأنه من خلق الله وتدبيره.

ولهذه العقيدة تأثير كبير في الحياة البشرية، الفردية والجماعية، وهي تتخلل جميع سور القرآن بلا استثناء، وتتخلل جميع أحكام الإسلام الأخلاقية والتشريعية، فإننا لا نستطيع ـ مثلاً ـ أن نعزل قواعد النظام الاجتماعي التي أرساها القرآن الكريم عن هذا العنصر الإيماني، ولا نستطيع أن نعزل قواعد النظام الاقتصادي أو السياسي أو غيرهما من النظم الإسلامية عن هذه العقيدة، وكذلك نجد الأحكام الأخلاقية تتخلل جميع الأحكام الفقهية، كما أن كل جانب من هذه الجوانب التي ألمحنا إليها مرتبط بسائر الجوانب والتشريعات، فهي بمجموعها تكوّن كلاً منسّقاً متكاملاً مترابطاً.

والعقيدة هي اللبنة الأولى الأساسية في بناء الإسلام، وهي أساس قبول العمل عند الله تعالى، ولذلك قال الله تعالى عن الكفار: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[١].

وعن هذه العقيدة تتفرع بقية الشُعَب الآتية، وعليها ترتكز وتقوم، فإذا انفصلت عنها أو لم ترتكز عليها كانت هباء وأهواء، وكان العمل ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[٢].

ب ـ العبادة:

وأما العبادة؛ فقد جعلها الله تعالى غاية الوجود الإنساني فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[٣]. كما جعلها تعبيراً حياً عن العقيدة التي تستقر في قلب المسلم، وتنقلها من حيز الفكر المجرد إلى حيز القلب الذي يحسُّ ويشعر، وإلى مجال العمل الصالح، فيجعلها بذلك قوة دافعة، لها حرارتها ونورها وأثرها في الحياة، ومن هنا كان ذلك الاقتران في القرآن الكريم بين الإيمان والعمل الصالح: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ . .﴾.

والعبادة تذكّر الإنسان بموقعه الحقيقي في هذا الوجود، وترقّي الجوانب النفسية والروحية عنده، وهي غير منفصلة عن أي جانب من جوانب الحياة، وفي الحديث الصحيح يقول عليه الصلاة والسلام: «**فوالله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني**

---

(١) سورة الفرقان، الآية: (**٢٣**).
(٢) سورة النور، الآية: (**٢٣**).
(٣) سورة الذاريات، الآية: (**٥٦**).

أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

وهذا يعطينا مفهوماً صحيحاً عن العبادة، فهي ليست محصورة في الشعائر التعبدية، التي هي أركان الإسلام، بل إنها تشمل جميع جوانب الحياة البشرية إذا ما التزم فيها المسلم بما شرع الله تعالى، فهي ـ كما يقول ابن تيمية رحمه الله ـ: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الخير والبِرّ والطاعة، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. فالصلاة والزكاة والحج، والدعاء وتلاوة القرآن الكريم، والجهاد والعمل الحلال، وطلب العلم والذكر والدعاء..»[2] إلخ، كل هذه الجوانب أبواب وفصول من كتاب العبادة الكبير، التي خلقنا الله تعالى لأجلها.

جـ ـ الشريعة:

وليس الإسلام محصوراً في هاتين الشعبتين فحسب، بل هو شريعة تنظم حياة الإنسان، ثم تنطلق لتضع أحكاماً لتنظيم الحياة الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد. كما تنظم الحياة الاقتصادية للإنسان ببيان ما يحل وما يحرم من طرائق الكسب والإنفاق. وتمتد لتشمل تنظيم علاقة المسلمين بغيرهم من الأمم الأخرى، في حال السلم والحرب، ضمن قواعد الحق والعدالة والخير.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب «النكاح»: ١٠٤/٩، ومسلم أيضاً في «النكاح»: ١٠٢٠/٢.

(٢) انظر: «العبودية» لابن تيمية: ص(٣٨) بتقديم الشيخ عبدالرحمن الباني.

ولذلك نجد في فقهنا الإسلامي ما يسمى اليوم بأحكام الأسرة، والمعاملات المالية، والنظم الجنائية والدستورية والإدارية والاقتصادية، والعلاقات الدولية الخاصة والعامة. وغير ذلك مما يعرفه علماء اليوم من هذه التنظيمات والمبادئ.

د ـ الأخلاق:

وأما الأخلاق فهي تحدد قواعد السلوك في الحياة الفردية فيما بين الإنسان ونفسه، وفي الحياة الأسرية فيما بينه وبين زوجته وأولاده..، وفي الحياة الاجتماعية عامة فيما بينه وبين الناس على اختلاف نوعية علاقتهم، كما تشمل النفسية المثالية التي يسعى الإسلام لتحقيقها وتزكيتها، فقد قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[١].

وفي كتاب الله تعالى وفي سنَّة النبي ﷺ، الذي بعثه الله تعالى ليتمِّم مكارم الأخلاق ومدحه بعظمة الخُلُق حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[٢]. في الكتاب والسنَّة بيان للمنهج الأخلاقي الأمثل وحثٌّ على مكارم الأخلاق وتحذير من سفاسفها، ثم إقامة لمعالم النظام الأخلاقي وربطه بالعقيدة والعبادة[٣].

---

(١) سورة الشمس، الآيات: (٧ ـ ١٠).

(٢) سورة القلم، الآية: (٤).

(٣) انظر: «خلاف الأمة في العبادات» مقدمة التحقيق د.عثمان جمعة ضميرية ص(٦ ـ ٨).

الترابط والتكامل:

وإذا كان الإسلام منهجاً شاملاً متكاملاً، يشمل الاعتقاد والعبادة والتنظيم والأخلاق، فإن هذه الجوانب مترابطة متداخلة لا يمكن أن نعزل جانباً منها عن سائر الجوانب الأخرى، وكلُّ جانب منها يتأثر بالجوانب الأخرى، ويؤثِّر فيها.

فالإيمان يدعو إلى العبادة الخالصة لله تعالى، وهو سبب قبول هذه العبادة عند الله، وكلما قوي إيمان المرء بالله تعالى ازداد طاعة وتقرّباً إلى الله، كما أن هذا الإيمان هو الركيزة القوية للأخلاق، فلا أخلاق مستقيمة بلا إيمان، ولا ضمير للمرء بلا إيمان، وجميع جوانب النشاط الإنساني في الشريعة ترتكز على الإيمان، وترتبط بالشعور بمراقبة الله تعالى وبالتذكير بعقد الإيمان.

وفي الوقت نفسه نجد العبادة والطاعة والخضوع لله تعالى ـ بكل صورها وأشكالها ومستوياتها ـ سبباً لزيادة الإيمان، لأن الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، وما بين هاتين الشعبتين أعمال كثيرة داخلة في الإيمان، تزيد فيه لأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

والعبادة أيضاً تتكامل مع الأخلاق وترتبط بها، لأنها سبب لاستقامتها، وتظهر آثارها في سلوك المؤمن وأخلاقه في هذه الدنيا قبل الآخرة، كما نجد في حكمة مشروعية الصلاة، حيث تنهى عن الفحشاء والمنكر، وفي الصوم الذي جعله الله تعالى

سبيلاً للتقوى، والحج الذي يشهد فيه المسلمون منافع لهم ويذكرون فيه اسم الله ويتعلمون منه دروساً عملية في الأخلاق.

ومن جهة أخرى نجد في الأخلاق التزاماً بأمر الله تعالى وتوجيهاته، واتِّباعاً لهدي النبي ﷺ وسُنَّته والتأسّي به، فهي بذلك طاعة وعبادة كما أنها منطوية ضمن شعب الإيمان وأعماله، وفي الوقت نفسه نجد الأخلاق الإسلامية قاعدةً تقوم عليها الأحكام والتشريعات في كل شؤون المجتمع الإسلامي...

وبكلمة موجزة: إن هذه الجوانب التي يتكوّن منها الدين الإسلامي متكاملة مترابطة، يمكن تشبيهها بالدوائر المتداخلة، ولا يجوز أن نفصل جانباً أو دائرة منها عن سائر الجوانب. ولذلك نجد في كتاب الله تعالى كثيراً من الآيات التي تجمع في سياقها بين هذه الجوانب كلها، إشارة إلى ذلك.

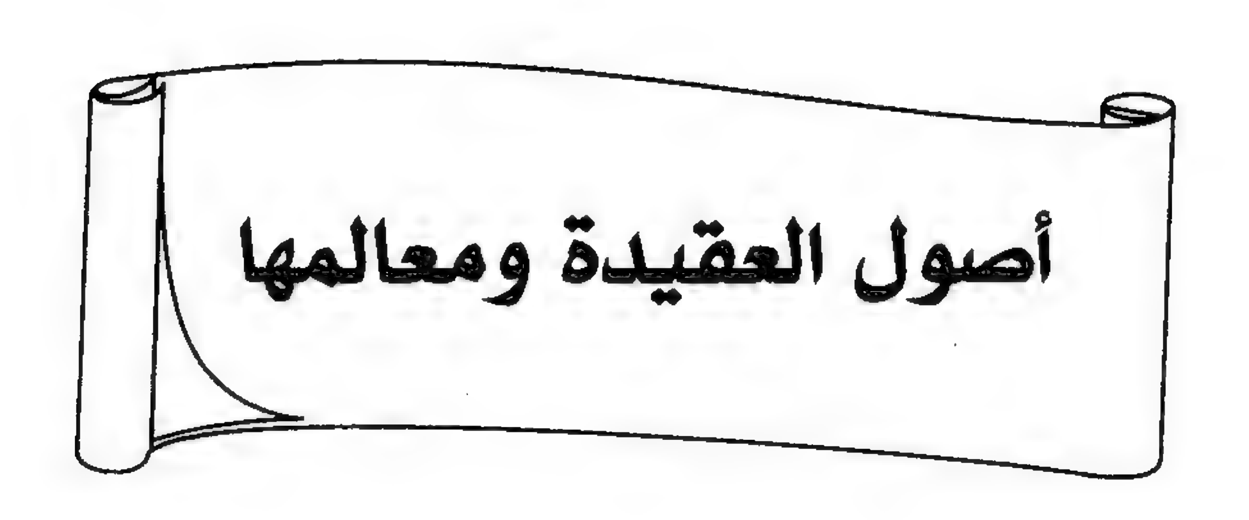
وهذه الخاصة للمنهج الإسلامي المتكامل كانت واضحة عند علمائنا فيما كتبوه من مؤلفات تعرض الإسلام عرضاً شمولياً مترابطاً. وحسبنا أن نشير إلى بعض الكتابات في ذلك، ويأتي في طليعتها: «حُجّة الله البالغة» للإمام الدِّهلوي، و«الإسلام عقيدة وشريعة» للشيخ شلتوت، و«نظام الإسلام» للأستاذ محمد المبارك، و«هذا ديننا» للشيخ الغزالي، و«تعريف عام بدين الإسلام» للأستاذ علي الطنطاوي، وكتابات الأستاذ المودودي، وسيد قطب رحمهم الله جميعاً، وللأستاذ محمد قطب كتاب «لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة» وللأستاذ عفيف طبارة كتاب يعرض فيه أصول الإسلام وآدابه وأحكامه بعنوان «روح الدين الإسلامي».

الفصل الثاني

أصول العقيدة ومعالمها

أصول العقيدة في القرآن والسنة:

- الإيمان بالله.
- الإيمان بالملائكة.
- الإيمان بالكتب.
- الإيمان بالرسل.
- الإيمان باليوم الآخر.
- الإيمان بالقدر.



أصول العقيدة في القرآن والسنة:

تضافرت النصوص القرآنية والنبوية، تدل دلالة قطعية على أصول العقيدة الإسلامية ومعالمها، وهي التي تسمّى أركان الإيمان. فقد جعلها الله تعالى صفاتٍ لازمةً للمؤمنين، وبيّن أنها هي الطاعة والبر، وأَمَرَ بالإيمان بها، وجعل إنكار ركنٍ منها كفراً بالله تعالى وضلالاً كبيراً:

فقال الله تعالى مبيناً صفات المؤمنين بما يدل على أركان الإيمان: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾[1].

وقال في بيان حقيقة البّر: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٨٥).

ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[1].

وقال بصيغة الأمر الدال على وجوب الإيمان بأركان العقيدة، مقترناً ببيان أن الكفر بركن من الإيمان إنما هو ضلال وكفر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾[2].

وتقدم آنفاً في حديث جبريل الذي رواه الشيخان وفيه عن الإيمان: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

فهذه ستة أصول للعقيدة الإسلامية ومعالمها وهي أركان الإيمان، لا يتم إيمان المرء إلا بها. وسنقف لكل ركن منها فقرة موجزة. والله الموفق.

الإيمان بالله تعالى:

الإيمان بالله تعالى، خالق الكون وحده لا شريك له، المتفرّد بالأمر والنهي، وبصفات العظمة والجلال، هو أوّل أركان الإيمان وأعظمها، وعنه تتفرع سائر الأركان ومن ثم أصبحت كلمة التوحيد، وهي شهادة «أن لا إله إلا الله» تشير إلى كل جوانب العقيدة ومسائلها؛ لأنه إذا حصل الإيمان بمضمونها على وجه صحيح استتبع ذلك ـ قطعاً ـ الإيمان بسائر العقائد من

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٧٧).

(٢) سورة النساء، الآية: (١٣٦).

إلهيّات ونبوّات وسمعيات؛ فإن الوحدانية تتضمن الاعتراف لله بأنه المعبود بحق، وهو اعتراف ضمني بأنه جامع لكل كمال، منزَّه عن كل نقص إذ لا يستحق العبادة ـ وهي نهاية التعظيم وغاية المحبة والخشية ـ إلا من كان كذلك.

وإنما كانت العناية بذكر الوحدانية، لأنها كانت أهم مقاصد الرسل جميعاً، ولأنها هي وحدها العقيدة التي كفرها أكثر الناس وهجروها، فهم يعرفون الله تعالى بقدرته وعلمه وإرادته وأنه خالق السموات والأرض... إلخ ولكنهم يؤمنون به وهم مشركون يتخذون أنداداً من دونه يحبونهم كحبه ويخشونهم كخشيته.

وهي تدلّ أيضاً على النبوات وما يتصل بها، فإن تكذيب الرسل هو عند التحقيق تكذيب لله تعالى وشرك به، لأنه لا يكذِّب الرسولَ إلا من أنكر معجزاته، ولا معنى لإنكار معجزاته إلا إنكار كونها من عند الله، وعندئذ يحصل الكفر، ولهذا حكم الله تعالى بالكفر على كل من يكفر برسول من الرسل فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ ﴾[1].

ثم إن تصديق الرسول في دعوى الرسالة يستلزم تصديقه في كل ما جاء به فتدخل السمعيات وغيرها في التوحيد. فيكون التوحيد جماع الدين كله[2].

---

(١) سورة النساء، الآيتان: (١٥٠ ـ ١٥١).

(٢) انظر: «المختار من كنوز السنة» ص(١٠٩، ١٤٢ ـ ١٤٤).

والإيمان بالله تعالى يتضمن الإيمان بوجوده سبحانه، والإيمان بأنه وحده الرب الخالق المدّبر لهذا الكون، المتصرِّف بكل ما فيه، فهو المتفرِّد بالربوبية، وأنه وحده يستحق العبادة والطاعة فهو المتفرِّد بالألوهية، وأنه سبحانه متفرِّد بصفات الكمال، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العُلىٰ.

وجود الله تعالى:

وجود الله تعالى فطرة في نفس كل إنسان، إذ لا يشك عاقل في ذلك: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]. فلم يكن الأمر بحاجة إلى وقفة طويلة لمناقشة الكفار والمشركين وإقامة الأدلة على وجود الله تعالى، وإنما جاءت الرسل لتصحيح فكرة الناس عن الألوهية. إلا أن هذه الفطرة قد يصيبها من الأمراض ما يجعلها تنحرف أو تنطمس لسبب من الأسباب، فتحتاج عندئذ إلى أن توقَظ من جديد، ولهذا بعث الله تعالى رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ للدعوة إلى التوحيد، وأقام من الأدلة في الأنفس والآفاق ما يجعل هذه الفطرة تعود إلى سابق صفائها ونقائها، وما يجعل المنكِر لوجود الله تعالى معترفاً بهذا الوجود المطلق، وعندئذ تتعانق الأدلة الشرعية السمعية مع الأدلة الكونية والعلمية لتشير كلها إلى هذه الحقيقة الكبرى في الوجود وهي الإيمان بالله تعالى.

ولن نقف هنا عند هذه الأدلة وعرضها، لئلا نخرج عما

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: (١٠).

أردناه من إيجاز في هذا البحث، ولأن الرجوع إلى هذه الأدلة في مصادرها أمر في غاية اليسر وأصبح في متناول كل دارس[1]، فحسبنا أن نشير إلى إمكانية تصنيف هذه الأدلة إلى صنفين:

(الأول): الأدلة التي يمكن الوقوف عليها من خلال البحث والتفكير في الكون أو الطبيعة. وهي إما تدور حول المادة أو حول الحياة، وتحت شعبة المادة دليلان هما: برهان الخلق أو السببية أو الحدوث. وبرهان الغاية والقصد أو النظام، وتحت شعبة الحياة دليلان آخران هما: برهان ظهور الحياة في المادة، وبرهان التناسل بين الأحياء لدوام بقاء الحياة.

(الصنف الثاني): الأدلة التي يهتدي إليها الإنسان من خلال النظر والتفكير في نفسه وداخل أعماقه. وتحت هذا الصنف دليلان أيضاً، هما: برهان الاستكمال أو الاستقصاء أو المثل الأعلى. وبرهان الأخلاق أو وازع الضمير[2].

---

(١) انظر بالتفصيل: «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن» للشيخ نديم الجسر، «الله يتجلى في عصر العلم» ترجمة عبدالمجيد سرحان، «العلم يدعو للإيمان» ترجمة محمود الفلكي، «دلائل التوحيد» للشيخ جمال الدين القاسمي، «الله» كتاب يبحث في نشأة العقيدة الإلهية، للعقاد، «الله» لسعيد حوى، «العقيدة في الله» للدكتور عمر الأشقر، «عقيدة المسلم» للشيخ محمد الغزالي، «ركائز الإيمان» للأستاذ محمد قطب. وعامة كتب التوحيد والعقيدة تقيم الأدلة العقلية والمنطقية والفلسفية على وجود الله تعالى ووحدانيته.

(٢) انظر هذا التصنيف ونماذج من هذه الأدلة في «دراسات في الفكر الإسلامي» لأستاذي الدكتور عدنان محمد زرزور، ص(٩١ ـ ١٠٧).

توحيد الربوبية:

وهو اعتقاد أن الله سبحانه وتعالى هو وحده ربُّ كل شيء ومالكه، وهو خالق كل شيء، وهو خالق العباد ورازقهم، وهو محييهم ومميتهم. وأنه سبحانه النافع الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، والأمر كلُّه له ـ سبحانه ـ وبيده الخير كلُّه، وهو على كل شيء قدير. ليس له في ذلك شريك، وأنه ما من شيء يحدث في هذا الكون إلا بعلمه وإرادته وقدرته.

ولا أظن عاقلاً يوقن في قرارة نفسه بأن هناك خالقاً أو مدبِّراً لهذا الكون غير الله سبحانه وتعالى، أو أن هذا الكون لم يخلقه الله سبحانه، فإن الوحدة والتناسق في نظام الكون دليل على وجود الله تعالى ووحدانيته.

ولذلك جاءت الآيات القرآنية الكريمة توجّه أنظارنا إلى هذا الكون وتناسقه، لتبيِّن لنا أن وراء هذا كله قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإرادته: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن

يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾[١].

وقال الله تعالى:

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[٢].

ومن نور هذه المشكاة جاء حديث النبي ودعاؤه الذي يقول فيه: «**اللهمَّ أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرِّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[٣].

وإذا كان من البداهة والفطرة أن يُقِرَّ الإنسان بوجود الله سبحانه وتعالى ووحدانيته ـ على ما أسلفنا ـ لأن كل الأدلة تدل على ذلك، فإنه من السخافة والضلالة والجهالة أن يغمض الإنسان عينه أو يجعل عليها غشاوة لئلا تبصر الحق وتهتدي إليه، أو أن يلغي عقله ويطمس على بصيرته ويخالف فطرته، فينكر وجود الله سبحانه، وينسب الخلق إلى ما أسماه بعضهم: الطبيعة أو التفاعل الذاتي أو المصادفة.. كما يفعل الملحدون وأضرابهم من السفهاء[٤].

---

(١) سورة النمل، الآيات: (٥٩ ـ ٦٤).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (٧٩).

(٣) أخرجه البخاري في «الدعوات»: ١١/١٣٠.

(٤) انظر: «التصور الإسلامي للكون والحياة» فصل حقيقة الكون، تأليف عثمان ضميرية.

صور من الإخلال بتوحيد الربوبية:

ولئن اضمحلّت تلك الموجة الإلحادية ـ التي اتسعت دائرتها في أوروبا لظروف خاصة ـ إننا نجد في كثير من بقاع المسلمين صوراً وألواناً من الإخلال بتوحيد الربوبية نجدها عند أولئك الذين يزعمون أو يظنون أن أحداً من البشر، كالأقطاب والأبدال.. عند الصوفية، لهم نوع من القدرة والتصرف في هذا الكون، أو أن هذا الكون يحفظ بهم! أو أن الأولياء في قبورهم يستطيعون أن ينفعوا أحداً بشيء، كالشفاء من المرض، أو تيسير حاجة ما من حاجات الناس ولذلك تراهم يطوفون حول قبورهم، ويقدِّمون لهم النذور والقرابين..!!

ولا يبعد عن هؤلاء أولئك الذين يخضعون خضوعاً تاماً لأشياخ الطرق الصوفية ويكونون بين أيديهم كالميت بين يدي الغاسل!! فإنهم وإن كانوا يقولون: إن الله هو الخالق الرازق المدبّر لهذا الكون المتصرِّف فيه، فواقع حالهم يشير إلى أنهم لم يقدروا الله حق قدره، وأنهم يعظِّمون هؤلاء الأموات أو المشايخ أكثر مما يعظمون الله تعالى[1]!.

توحيد الألوهية:

وتوحيد الألوهية، ويقال أيضاً: توحيد العبودية وهو: إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، بمعنى: أن يُعْبَد الله سبحانه

---

(١) انظر: «مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية»، د.عثمان جمعة ضميرية، ص(٢٢٦ ـ ٢٣١).

وتعالى وحده، ولا يُشْرَك معه في عبادته أحد من خلقه، لأنه وحده المستحق لأن يُعْبَد، وهو مَبْنِيٌّ على إخلاص العمل كله والتوجه به لله سبحانه وتعالى وحده دون سواه، سواء كان هذا العمل من أعمال القلوب أو من أعمال الجوارح.

وهذا النوع من التوحيد هو الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1] وأساس ذلك أن تعلم أن هناك ألوهية وعبودية، فالله سبحانه وتعالى هو الرب القوي القادر، الغني الواسع، العزيز الحكيم، الرازق المحيي المميت... المتفرّد بكل صفات الكمال، وهو الإله الحاكم المشرِّع، الذي ينبغي أن يتوجّه إليه جميع الخلق بالعبادة، وأما الإنسان، فهو مخلوق لله سبحانه، وهو عاجز ضعيف، رغم كل ما منحه الله تعالى من المواهب والملَكات، وهو خاضع عابد بطبعه، إن لم يكن عابداً لله تعالى فإنه سيعبد غير الله، ويقع في عبودية غير الله تعالى، فهو إن لم يكن عبداً لله كان عبداً لغير الله. فالصلة بين العبد وربه تبارك وتعالى هي صلة العبودية بالربوبية، وتحقيق ذلك يكون بالتوجه إلى الله تعالى وحده بالأعمال والقصد، وهو توحيد الألوهية كما سبق بيانه[2].

وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو

---

(١) سورة هود، الآية: (١٢٣).

(٢) انظر: «العبودية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، «مقومات التصور الإسلامي» للأستاذ سيد قطب، فصل: ألوهية وعبودية.

أول دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وآخرها، وهو معنى قول: لا إله إلا الله، وجميع رسل الله تعالى عليهم الصلاة والسلام جاؤوا إلى أممهم بالدعوة إلى هذا التوحيد[١].

توحيد الأسماء والصفات:

هو الإيمان بأن الله تعالى له الأسماء الحسنى التي بلغت الغاية في الحسن، وله الصفات العُلىٰ التي لا تشبه صفات المخلوقين، فهو سبحانه متفرِّد بصفات العظمة والجلال، وقد تكفّل سبحانه وتعالى، فعرَّفنا بأسمائه الحسنى وصفاته العظمى، عن طريق وحيه المنزَّل ثم عن طريق رسله عليهم الصلاة والسلام، لأنهم أعلم الخلق بالله سبحانه وتعالى، ولذلك قال الله عن نبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[٢]. ويبقى دور العقل هنا أن يتلقى النصوص الشرعية من الوحي ليفهم ما تتضمّنه هذه النصوص من معاني أسماء الرب سبحانه وصفاته.

وبكلمة واحدة: «نحن قد نعرف الله عقلاً، ولكننا لا نعرف صفاته إلا وحياً»[٣].

وإذا كان الرب سبحانه وتعالى أعلم بنفسه من خلقه

---

(١) انظر: «تطهير الاعتقاد» للصنعاني، ص(٢٠، ٢١) ص(٢٦ ـ ٢٨)، «الإسلام وعلاقته بالشرائع الأخرى» عثمان ضميرية، ص(١١ ـ ٢١).

(٢) سورة النجم، الآيتان: (٣، ٤).

(٣) انظر: «دراسات في الفكر الإسلامي» لأستاذي الفاضل الدكتور عدنان محمد زرزور ص(١١٩).

وأصدق قيلاً، ومنهجه أهدى سبيلاً، وكان رسوله المبلِّغ عنه كذلك أعلم به، وبما يجب له، وبما يمتنع عليه، من كل أحدٍ، وهو أقدر الناس على بيان ذلك، وأحرصهم على هداية الخلق إليه، فلا يجوز التعويل - إذن - في إثبات الأسماء والصفات لله سبحانه وتعالى، أو نفي ما يُنفى، على غير الكتاب والسنة.

فالأدلة التي تثبت بها أسماء الله تعالى وصفاته، هي: كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ، الثابتة عنه، فلا تثبت أسماء الله تعالى وصفاته بغيرهما.

وعلى هذا فما ورد لله تعالى من ذلك في الكتاب والسنَّة وجب إثباته، وما ورد نَفْيُهُ فيهما وجب نفيه مع إثبات كمال ضدِّه. وما لم يرد إثباته ولا نفيه فيهما وجب التوقف في لفظه، فلا يثبت ولا ينفى، لعدم ورود الإثبات والنفي فيه.

وأما معناه، فيفصل فيه؛ فإن أريد به حقٌّ يليق بالله تعالى فهو مقبول، وإن أريد به باطل لا يليق بالله عزّ وجل وجب ردُّه[(١)].

فإن الله سبحانه وتعالى لم يكلِّفنا، ولم يتركنا في معرفة شيء من أسمائه الحسنى وصفاته العظمى إلى شيء وراء ما دلَّ عليه الكتاب والسنة، فمن رجع في شيء من ذلك إلى قضية

---

(١) انظر: «الرسالة التدمرية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهي في مجموع الفتاوى: ٣/ ١ ـ ١٢٨. «القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى» للشيخ مجمد صالح العثيمين، ص(٢٩ ـ ٣٣).

عقل أو استحسان برأي أو إلهام أو كشف، أو غير ذلك، فقد قال على الله تعالى بغير علم، وضلَّ عن سواء السبيل.

ولذلك يؤمن المؤمن بكل ما أثبته الله تعالى لنفسه من الأسماء والصفات، وما أثبته له رسوله ﷺ، من غير تكييف، ولا تمثيل، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تأويل.

وحتى لو اتفقت الصفات في أسمائها، فإن صفات الله تعالى تختلف عن صفات المخلوقين، فالاتفاق في الأسماء لا يقتضي الاتفاق في المسمَّيات، وكما أن ذات الله لا تشبه ذوات المخلوقين، فإن صفات الله لا تشبه صفات المخلوقين، ويكتمل هذا الكلام بقاعدة أخرى وهي أن القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر، يجب الإيمان بها كلها حقيقة على ما يليق بالله تعالى وعظمته.

وعندئذ يكون المؤمن قد تعرف على الله تعالى معرفة صادقة من خلال معرفته للأسماء والصفات التي أخبرنا الله تعالى بها، كي نؤمن بها وكي نتعرف على الله من خلالها، وندعوه بها، ليكون لها أثرها في السلوك الفردي والاجتماعي، فعندما نتعرف على الله الخالق الرازق، لا نطلب الرزق إلا منه، وعندما نتعرف على الله العليم الحكيم نسلّم له الأمر كله، وعندما نعرف أنه متفرد بالخلق والأمر فإننا نخضع لأمره وحكمه، وعندما نتعرف عليه سميعاً بصيراً تمتلئ نفوسنا تقوى وخشية له سبحانه... وأما ما وراء ذلك من أبحاث الفلاسفة والمتكلمين عن الصفات وعلاقتها بالذات وكيفية قيامها بها... إلخ هذا كله

مما لا طائل تحته ولا فائدة ترجى منه، بل هو مزلَّة أقدام ومضلَّة أفهام، نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العظمى أن يثبّتنا على الحق والهداية.

الإيمان بالملائكة:

الإيمان بالملائكة ـ عليهم السلام ـ هو الركن الثاني من أركان الإيمان، جاء تالياً للإيمان بالله وسابقاً على الإيمان بالكتب والرسل، كما جاء في سورة البقرة وفي حديث جبريل ـ فيما تقدّم آنفاً ـ فلا يتمّ إيمان المرء إلا بأن يعتقد اعتقاداً جازماً بوجود الملائكة وبما أخبر الله تعالى عنهم من طبيعة خلقهم وصفاتهم ووظائفهم، وبما جاء عنهم في صحيح الأحاديث النبوية، فمن جاء ذكره منهم في القرآن والسنّة نؤمن بهم تفصيلاً، ونؤمن بما عداهم إجمالاً.

وغنيٌّ عن البيان أن الإيمان بالملائكة إنما هو إيمان بالغيب الذي هو أصل العقيدة الإسلامية. والإيمان بالغيب طريقهُ النصوص الشرعية والآثار التي تدل عليه، فهو لا يخضع لحكم الحواس أو العقل إذ أن العقل والحواس مصدران لمعرفة عالم الحس والشهادة[١].

ولهذا فلا سبيل للتعرف على الملائكة إلا الخبر الصادق وهو الوحي (قرآناً وسُنّة)، كما أن هناك آثاراً تدل على

(١) انظر بالتفصيل: «عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي» عثمان جمعة ضميرية ص(٢١) وما بعدها.

وجودهم، فالملائكة تتنزل بالوحي على الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد حدثنا القرآن الكريم والسنّة النبوية حديثاً مستفيضاً عن الملائكة، بياناً لطبيعتهم وخلقهم، وإجمالاً لوظائفهم وأعمالهم وعلاقتهم بالكون وبالإنسان، ومن خلال هذا كله يأتي الرد على شبهات المشركين الذين جعلوا الملائكة شركاء لله فعبدوها مع الله أو من دون الله، أو جعلوها ذرّيّة وبنات لله ـ تعالى الله عن ذلك ـ كما أن هذا الحديث والبيان فيه ردٌّ على تصورات الفلاسفة وأهل المذاهب المنحرفة في تصورهم للملائكة بأنهم مجرد عقول أو مجرد عبارة عن تصورات الله[1].

ويمكن أن نجمل ما جاء عنهم في القرآن والسنّة بأنهم مخلوقات نورانية غيبية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، ولهم قوة وقدرة خارقة، يقومون بوظيفتهم في طاعة الله والامتثال لأوامره، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهذه الجملة الموجزة تتضح بالبيان التالي.

صفات الملائكة:

وأول هذه الصفات هو ما يتعلق بطبيعتهم وخَلْقهم فقد جاء في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: **«خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخلق الجانُّ من مارج من نار، وخلق**

---

(١) انظر: «الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها» للمودودي، ص(١٥٩ ـ ١٦٠).

آدم مما وُصِف لكم»[1].

وحسبنا هذه المعرفة الإجمالية عن مادة خلقهم دون البحث في الكيفية التي لا نملك دليلاً عليها.

وهم بذلك يتميزون عن عالم الجن والإنس، ولذلك فهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، قال تعالى ردّاً على مزاعم الكافرين:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾[2].

وهم لا يأكلون ولا يشربون، فلما قدَّم إبراهيم لهم الطعام وقد جاؤوه بصورة ضيوف من البشر ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[3].

ولهم قدرة على التشكُّل بالأشكال المختلفة والتمثُّل بصورة البشر: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[4]. وفي الأحاديث النبوية نصوص كثيرة تدل على هذا.

ولهم قدرات وقوة خارقة وأجنحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾[5].

---

(١) أخرجه مسلم في «الزهد والرقائق»: **٤/٢٢٩٤**.

(٢) سورة الصافات، الآيات: **(١٤٩ ـ ١٥٢)**.

(٣) سورة هود، الآية: **(٧٠)**.

(٤) سورة مريم، الآية: **(١٧)**.

(٥) سورة فاطر، الآية: **(١)**.

وظائف الملائكة:

الملائكة عباد لله تعالى خاضعون له، يقومون بأمر الله فيما كلّفهم به وفيما خُلقوا له؛ وقد أخبر الله تعالى عنهم وبيَّن وظائفهم:

١ - فهم في طاعة وتسبيح وعبادة دائمة لا تنقطع: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[١]. ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[٢].

٢ - وينزلون بالوحي على الرسل والأنبياء عليهم السلام، فقال الله تعالى عن ملك الوحي جبريل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾﴾[٣].

٣ - ويقومون بأعمال ووظائف تتعلق بالإنسان، كالاستغفار للمؤمنين وتسجيل أعمال البشر، وقبض أرواحهم، كما في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾[٤].

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: (١٩، ٢٠).

(٢) سورة التحريم، الآية: (٦).

(٣) سورة الشعراء، الآيات: (١٩٣ - ١٩٥).

(٤) سورة غافر، الآية: (٧).

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[1].

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾[2].

٤ ـ ومن أعمالهم أيضاً أمور أخرى كالنفخ في الصور، ثم في الآخرة الترحيب بالمؤمنين في الجنة، وتعذيب الكافرين... وأعمال أخرى تتصل بأمور في هذا الكون ـ على أحد الوجوه في تفسير بعض الآيات الكريمة[3].

الإيمان بالكتب:

الإيمان بالكتب السماوية المنزلة على الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو الركن الثالث من أركان الإيمان، وهو مرتبط بالإيمان بالله تعالى منزل الكتاب ومرسل الرسول، ومرتبط كذلك بالإيمان بالرسل عليهم السلام. فيجب أن نؤمن بكل ما أنزل الله تعالى من كتابٍ إجمالاً، كما نؤمن بالكتب التي جاء ذكرها في القرآن الكريم تفصيلاً.

وقد قامت الأدلة على هذا الركن، وقد سبقت الإشارة إليها، وهي تجمع كلَّ أركان الإيمان.

---

(١) سورة الانفطار، الآيات: (١٠ ـ ١٢).

(٢) سورة السجدة، الآية: (١١).

(٣) انظر بالتفصيل: «لوامع الأنوار البهية»: ٤٤٦/١ وما بعدها، «الحضارة الإسلامية» للمودودي ص(١٥٩ ـ ١٦١)، وللدكتور عمر الأشقر كتاب عن «عالم الملائكة الأبرار».

والكتب السماوية السابقة التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم هي صحف إبراهيم، والتوراة، والزبور، والإنجيل، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾[1].

وقال عن التوراة التي أنزلها على موسى عليه السلام: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾[2].

وقال عن الزبور الذي أنزله على داود: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[3].

وقال عن الإنجيل الذي أنزل على عيسى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾[4].

ثم ختم الله تعالى الكتب بالوحي المنزل على نبينا محمد ﷺ، وهو القرآن الكريم، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾[5]. وأصبح «الكتاب» اسم علم على القرآن المنزل على محمد ﷺ.

ويجب الإيمان بالكتب السابقة في أصولها المنزلة على الرسل والأنبياء عليهم السلام، وأما من حيث الاتباع والطاعة أو العمل والالتزام بما فيها، فلا بد من معرفة أن تلك الكتب

---

(١) سورة الأعلى، الآيتان: (١٨، ١٩).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٤٤).

(٣) سورة النساء، الآية (٦٣).

(٤) سورة الحديد، الآية: (٢٧).

(٥) سورة يوسف، الآية: (٢).

منسوخة، بالقرآن الكريم، فلا يجوز اتباعها والعمل بما فيها بعد نزوله، وذلك لوجوه كثيرة، أهمها أن تلك الكتب إما أنها لا توجد اليوم أصلاً، وإما أنها قد لعبت بها أيدي التحريف والتبديل، فهي ليست محفوظة كما أنزلت، وهذا يفقدنا الثقة بما فيها، وإن كان لا يعني أن كل ما فيها أصبح باطلاً، بل قد نجد أثراً لما اتفقت عليه الشرائع والرسالات.

وقد أخبر الله تعالى عن تحريف الكتب السابقة فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾[١].

وهم قد كتبوا كلاماً ونسبوه إلى الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾[٢].

واتخذ هذا التحريف ألواناً وصوراً وتنوع أنواعاً كثيرة، فكان منه تحريف لمعاني الكتاب ودلالة نصوصه، وتحريف لألفاظه بالزيادة فيها أو النقصان، أو الكتمان[٣].

أما القرآن الكريم: فقد تكفل الله تعالى بحفظه، وهيأ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٧٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٧٩).

(٣) انظر: «الفصل في الملل الأهواء والنحل» لابن حزم: ٤/٢ وما بعد، «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله العثماني: ٤٢٥/٢ ـ ٦٢٥، «مذاهب فكرية معاصرة» للأستاذ محمد قطب ص(٩ ـ ٢٤).

الأسباب لذلك. فهو الكتاب الوحيد الذي نقرؤه كما أُنزل على نبيّنا محمد ﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[1]. وجعله مهيمناً على ما سبقه وناسخاً للكتب السابقة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[2]. وهو كليّ الشريعة وعمدة الملّة، وآية النبوة والرسالة، وطريق الهداية.

الإيمان بالرسل:

الإيمان بالرسل والأنبياء هو الركن الرابع من أركان الإيمان، فلا يتم إيمان المرء حتى يؤمن بجميع ما أرسل الله تعالى من الرسل إجمالاً، ويؤمن بمن جاء ذكرهم في القرآن الكريم والسنّة النبوية بأعيانهم، دون تفريق بينهم في الإيمان، ولذلك كان الكفر بواحد منهم كفراً بهم جميعاً وكفراً بالله تعالى، لأن فيه تكذيباً لله سبحانه. قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١﴾[3].

وحاجة البشر إلى الرسالة والنبوّة لا تعدلها حاجة أخرى،

---

(١) سورة الحجر، الآية: (٩).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٤٨).

(٣) سورة النساء، الآيتان: (١٥٠، ١٥١).

فإن الرسل ـ عليهم السلام ـ هم الذين يعرِّفوننا بالله سبحانه وتعالى معرفة صحيحة صادقة، ويعرِّفوننا بكيفية العبادة والمنهج الذي ينبغي علينا اتباعه، وهم الذين يقومون بتربية الأمّة وتهذيب النفوس والأخلاق، لتكوين المجتمع المثالي الفاضل، وهم القدوة الحسنة والمثال الذي نحتذيه، وما من خير في هذه الدنيا إلا وهم سببه والطريق الموصل إليه، وبهم تقوم الحجة على البشرية.

ولذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يختار من الناس رسلاً من أنفسهم، فيتفضل عليهم بإنزال الوحي الذي يبلِّغونه للناس، لأن النبوّة منحة وهبة من الله تعالى، لا ينالها الإنسان بكسبه أو تطلُّعه إليها، وإن كانت لا تكون إلا لمن علم الله أنه أهل لذلك: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1].

وهذا يعني أن الرسل عليهم الصلاة والسلام يتصفون بصفات الكمال البشري فإنهم وإن كانوا بشراً يطرأ عليهم ما يطرأ على البشر، لكنهم يتميّزون بنزول الوحي عليهم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[2]. وقد عصمهم الله تعالى عن الوقوع في الخطأ في تبليغ الوحي، وعصمهم عن الوقوع في الكبائر من الذنوب، لأنهم القدوة الصالحة في كل مجال وعلى كل مستوى، وقد تمثلت فيهم الأخلاق الفاضلة والصفات العالية التي تدل على كمالهم، وتدل أيضاً على صدقهم في النبوّة، إضافة

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (١٢٤).

(٢) سورة الكهف، الآية: (١١٠).

إلى دلائل صدقهم الأخرى كالمعجزات والإخبار عمن سيأتي منهم ويبعث، وغير ذلك من آيات النبوة والرسالة[1].

ومن أصول الإيمان بالرسل أن نؤمن بأنه ما من أُمّة إلا وقد بعث الله فيها رسولاً، وأنهم قد جاؤوا كلهم بدين واحد من عند الله تعالى هو الإسلام بمعناه العام، ويشمل أصول الإيمان وأركانه، وأصول الشرائع كالأمر بعبادة الله وحده، وبرّ الوالدين وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، وتحريم الإثم والبغي... وأصول العبادات، وإنما الذي يختلف من دعوة نبيّ لآخر إنما هو الشريعة في الأمر والنهي والتخفيف والشدة في بعض الأحكام، وفي شمولها لما لم يكن منصوصاً عليه في شريعة سابقة، وفي صور بعض العبادات والأحكام الفرعية، وهذا كله يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾[2].

وفي الحديث المتفق عليه: «**الأنبياء إخوة لِعلاّت، أمّهاتهم**

---

(١) انظر بالتفصيل: «الحضارة الإسلامية» للمودودي ص(١٦٧) وما بعدها، «نظام الإسلام» للمبارك ص(٧١) وما بعدها «التوحيد» للأستاذ محمد قطب: ٦/٣ وما بعدها. «الرسل والرسالات» د.عمر الأشقر، «النبوة والأنبياء» لأبي الحسن الندوي.

(٢) سورة المائدة، الآية: (٤٨).

شتّى ودينهم واحد»[1].

ومن أصول الإيمان بالرسل عليهم السلام، أن نؤمن بما اختص الله به نبينا محمداً ﷺ، فقد قضت حكمة الله تعالى وإرادته أن تختم رسالات السماء برسالته، فلا رسالة بعد رسالته ولا نبيّ بعده: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾[2].

وفي الصحيح قال ﷺ: **«فُضِّلتُ على الأنبياء بست: أُعطيت جوامع الكَلِم، ونُصِرْتُ بالرُّعْب، وأُحلَّت لي الغنائم، وجُعِلَت لي الأرض طَهوراً ومسجداً، وأُرسلتُ إلى الخلق كافة، وخُتِم بي النبيون»**[3].

وقال: **«مَثَلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلّا وُضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللّبنة وأنا خاتم النبيين»**[4].

وهذا يقتضي أن تكون دعوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ للناس جميعاً لا تخاطب أقواماً بأعيانهم ولا جنساً بذاته، وإنما

---

(١) انظر: «حجة الله البالغة» للدّهلوي: ٢٨٥/١ ـ ٢٨٩، بتحقيق د.عثمان ضميرية، «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» ١١٢/١٩ ـ ١١٣، «تفسير الطبري» ٢٦٩/٦ ـ ٢٧٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٤٠).

(٣) أخرجه مسلم: ٣٧١/١.

(٤) أخرجه البخاري: ٥٥٨/٦، ومسلم: ٣٧١/١، ١٧٩٠/٤.

يتوجه فيها الخطاب للناس جميعاً بصفتهم الإنسانية العامة، فقال سبحانه وتعالى على لسان نبيّه ﷺ ـ فيما أمره بالبلاغ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾[1].

ولذلك جعل الله القرآن الكريم نذيراً للعالمين جميعاً، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾[2].

وأكمل الله تعالى هذه الرسالة وأتمّ بها النعمة ورضيها لنا ديناً، وجعلها ظاهرة على الأديان كلها، فقال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾[3].

ولهذا لا يقبل الله تعالى من الناس ديناً سوى الإسلام، فإنه كلمة الله الأخيرة للناس، والدين الحق الذي نسخ به سائر الأديان، وجعله مهيمناً عليها[4]. فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[5].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٥٨).

(٢) سورة الفرقان، الآية: (١).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٣).

(٤) انظر: «الإسلام وعلاقته بالشرائع الأخرى» د.عثمان جمعة ضميرية، ص(٥٤ ـ ٦٠).

(٥) سورة آل عمران، الآية: (٨٥).

ولذلك تكفَّل الله تعالى بحفظ هذا الدين عندما تكفَّل بحفظ أصوله المنزلة وحياً على نبيّه ﷺ، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[1].

الإيمان باليوم الآخر:

إن الإيمان باليوم الآخر، أو الحياة بعد الموت، وما يتضمنه من أمور يجب التصديق بها، ركن من أركان الإيمان، وعقيدة من عقائد الإسلام، جاءت مقترنة بالإيمان بالله تعالى مرتبطة به في كثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، كقوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[2].

ويتضمن الإيمان باليوم الآخر: التصديق الجازم بأن هذه الحياة الدنيا لها نهاية تنتهي فيها الخلائق، ويتبدل فيها هذا النظام الكوني، ويعرف ذلك بيوم القيامة، حيث ينتهي أجل الإنسان بالموت، فتبدأ مرحلة الحياة البرزخية، ثم يبعث الله تعالى الناس من قبورهم ويجمعهم للحساب على ما عملوه من خير أو شر، ويتحدّد مصير الإنسان عندئذ إما إلى جَنَّة أبداً وإما إلى نار أبداً، وذلك أن الحياة الدنيا دار الابتلاء والآخرة دار الحساب والجزاء.

وقد قامت الأدلة النقلية والعقلية على وجوب الإيمان بالبعث وباليوم الآخر، ونجد في كتاب الله تعالى آياتٍ كثيرةً،

(١) سورة الحجر، الآية: (٩).

(٢) في أكثر من آية...

وبخاصة في السور المكية، تتحدث عن اليوم الآخر والنشأة الآخرة، وتجعل النشأة الأولى والخلق الأول دليلاً على النشأة الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾[1].

ومن قدر على الخلق في المرة الأولى فهو على الإعادة أقدر، وهو سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، وآيات قدرته في الخلق دليل قدرته على الإعادة:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ . . .﴾ إلى ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2].

ولا يجوز في حكم العقل أن تكون هذه الحياة عبثاً أو أن يُترك الإنسان سدىً لا يحاسب على أعماله ولا يجازى، فإن ذلك يتنافى مع العدل، والله سبحانه وتعالى عادل حكيم، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾[3].

وهل يستوي في حكم العقل أيضاً أن ينتهي الكافرون والمؤمنون إلى نهاية واحدة لا يتمايزون فيها: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[4].

ومن أعظم الأدلة وأوضحها على الإيمان بالبعث والحساب: أن في الوجود مخلوقات لها دورات متعاقبة من

---

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: (١٨، ١٩).

(٢) سورة يس، الآيتان: (٧٨، ٧٩).

(٣) سورة المؤمنون، الآية: (١١٥).

(٤) سورة القلم، الآيتان: (٣٥، ٣٦).

الحياة، فالنبات يظهر وينمو ثم يذبل ويضمحلُّ حتى يصبح ذرات متفرقة تختلط بالتراب حتى لا تعرف، ثم يكون موسم يظهر فيه النبات كرّة أخرى، فلماذا لا يكون شأن البشر كذلك مع الفارق في مدة الدورة؟

وإذا كان الله الخالق قد خلق الإنسان في مراحل عديدة متعاقبة مذ كان نطفة إلى أن أصبح شيخاً هرماً، فلماذا لا يخلقه في مرحلة تالية بعد موته ويجعله في مرحلة بعد تلك المراحل؟

لقد تكررت هذه المعاني في القرآن الكريم في مواطن كثيرة[1]، من ذلك هذه الآيات الكريمة من سورة الحج، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾[2].

وإن التفكر في ما يتضمنه الإيمان باليوم الآخر يجعل الإنسان على ثقة تامة بأن هذه العقيدة التي نؤمن بها هي أقرب إلى العقل من بين جميع العقائد التي توجد اليوم في الدنيا عن

---

(١) انظر: «نظام الإسلام» للأستاذ محمد المبارك ص(١٢٧).

(٢) سورة الحج، الآيات: (٥ ـ ٧).

حياة الإنسان بعد موته، وليس فيها شيء يخالف العقل أو يكون من المستحيل وجوده.

ثم إذا كان هذا الأمر قد بلَغَنا على لسان محمد ﷺ وهو في صدقه وأمانته وعفافه حيث قد عرفنا، وفيه الخير كل الخير لأنفسنا، فإن العقل يقتضي أن نؤمن به، ولا يقتضي أن نرتاب فيه من غير حجة ولا برهان[1]. وإن الآثار الكبيرة في حياة الفرد والجماعة التي تترتب على الإيمان باليوم الآخر والحساب والجزاء، لشاهدٌ آخر على أهمية هذا الإيمان. كما سيأتي في فصلٍ تالٍ إن شاء الله تعالى. فحسبنا هنا هذه اللمحات السريعة.

الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقَدَر ركن من أركان الإيمان، فلا يتمُّ الإيمان حتى يؤمن الإنسان بالقَدَر خيره وشره أنه من عند الله تعالى، وأنه لا يكون شيء في هذا الكون إلا ما قدَّره الله. وهو في حقيقته يعود إلى الإيمان بالله تعالى، لأن فيه نسبة كل الأحداث إلى الله تعالى وهذا مقتضى الإيمان بالله وتوحيده. وفيه يعلم الإنسان أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وجاءت النصوص القرآنية والنبوية تدل على وجوب الإيمان بالقدر، كقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾[2]. ﴿مَآ أَصَابَ مِن

---

(١) انظر: «مبادىء الإسلام» للمودودي ص(٩٧). وله أيضاً: «الحضارة الإسلامية» ص(٢٢٣) وما بعدها.

(٢) سورة التغابن، الآية: (١١).

مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾[١].

وتواردت الأحاديث النبوية في ذلك، كما في حديث جبريل السابق، وحديث ابن عمر رضي الله عنهما: «كل شيء بقدر حتى العجز والكَيْس»[٢].

والذي تدل عليه آيات القرآن الكريم أن القَدَر هو السنن التي سنّها الله تعالى لهذا الكون، والنظام الذي سلكه به والقوانين الطبيعية التي سيَّره عليها، وأن كل ما فيه قد خلق بمقادير معينة، ونِسَب محدَّدة، فما من موجود إلا وقدّر قبل إيجاده مقداره منذ الأزل، فكان كما قدره الله[٣]. ولذلك يقال أيضاً: القضاء والقَدَر، وعندئذ فالقَدَر هو علم الله تعالى بما تكون عليه المخلوقات في المستقبل علماً أزلياً، والقضاء هو إيجاد هذه الأشياء كما علمها الله تعالى.

والإيمان بالقَدَر يشتمل على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: هي الإيمان بعلم الله علماً أزلياً محيطاً بجميع خلقه، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

والمرتبة الثانية: الإيمان بأن الله تعالى كتب مقادير الخلق في اللوح المحفوظ.

---

(١) سورة الحديد، الآية: (٢٢).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر: (٤/٢٠٤٥).
(٣) انظر: «تعريف عام بدين الإسلام» للطنطاوي ص(١٥١ ـ ١٥٢) «وروح الدين الإسلامي» عفيف طبارة، ص(١٥٣).

والثالثة: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والمرتبة الرابعة: الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء، لا خالق غيره ولا رب سواه.

وقد جاء النهي عن الخوض في القَدَر والتعمُّق فيه، فحسبنا هنا الإشارة إلى أن الإيمان بالقضاء والقَدَر لا يعني الاستسلام للعجز والكسل، ولا إلقاء اللوم على المقادير فيما يصيب الإنسان، ولا الاحتجاج به على ما يفعله من معاصي.. وإنما هو حافز قويٌّ للعمل الصالح والإقدام على عظائم الأمور، وعصمة من الوقوع في الوهن والجزع عند حلول المصائب. وفي القرآن الكريم بيان لمشيئة الله تعالى المطلقة حيث يردُّ الأمر كله إلى الله تعالى، وبيان لما للإنسان من مشيئة وإرادة مقيدة ضمن مشيئة الله تعالى وقدرته، فهناك أمور تحدث بمحض القدرة العليا وفق المشيئة الإلهية وحدها، لا إرادة للإنسان فيها، وهي ليست محل مؤاخذة ولا مسؤولية، وهناك أمور يقوم بها الإنسان بإرادته واختياره وهذه موضع المسؤولية، وعلى هذا يجري القضاء والقَدَر في كل وقائع الحياة وأحداثها، لأنه هو الخطة التي قدرها الله للمخلوقات قبل خلقها وتلك السنن التي أجراها عليها وفق صفة العلم الإلهي والقدرة والإرادة[1].

---

(١) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» ١/٣٢٠ وما بعدها «عقيدة المسلم» للغزالي ص(١١٣ ـ ١٤٢)، «في ظلال القرآن» ص(١٢٢٦)، وفصل مفهوم القضاء والقدر في كتاب «مفاهيم ينبغي أن تصحح» للأستاذ محمد قطب، و«القضاء والقدر» د.عبدالرحمن المحمود.

الفصل الثالث

منهج بيان العقيدة وغرسها في النفوس

تمهيـد:

خصائص المنهج القرآني.

إجمال المنهج القرآني في بناء العقيدة:.

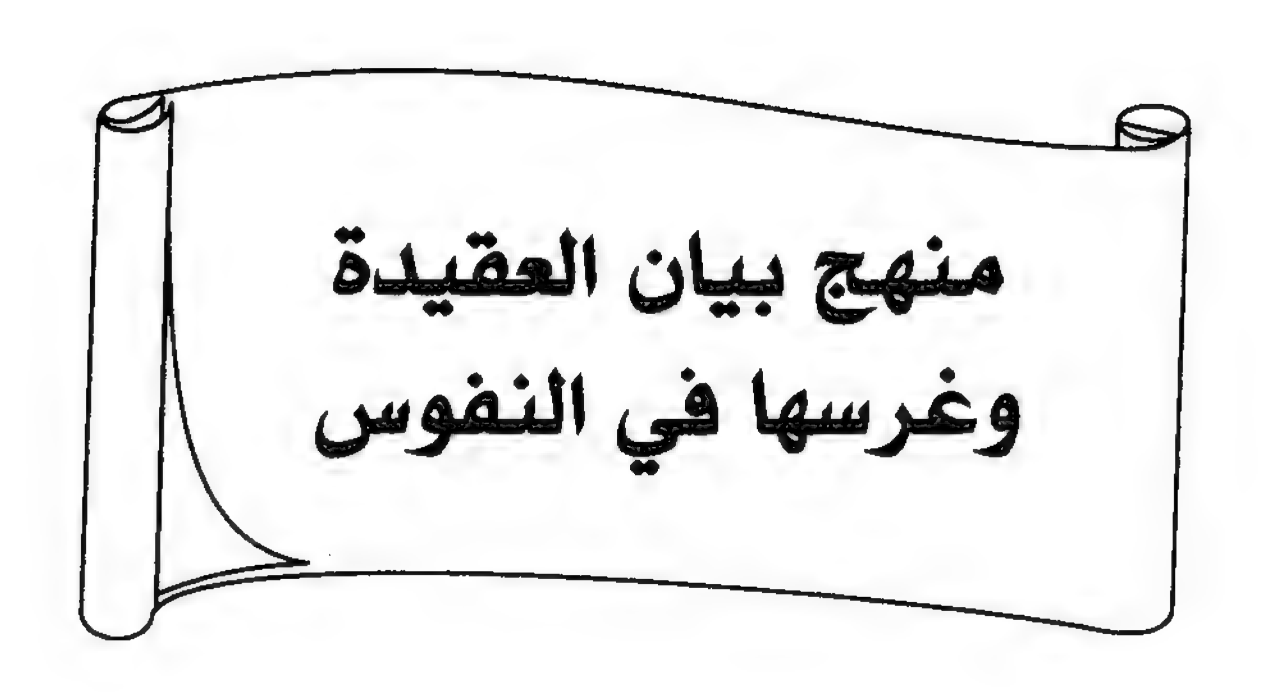
١ ـ المنهج الفطري أو الوجداني.

٢ ـ المنهج العقلي.

٣ ـ منهج الحوار والرد على الانحرافات.

٤ ـ منهج بيان العقيدة من خلال القضايا الاجتماعية.

٥ ـ المنهج الإرادي العملي.



تمهيد:

يتعرف الإنسان على الموجودات من حوله، ويحكم عليها، ويعلمها علماً يقينياً أو ظنياً، بطرق وأسباب؛ قد تكون من داخل نفس الإنسان، وقد تكون من خارجها؛ فإذا كانت من خارج النفس: فهي الخبر الصادق بدلالته على ما يخبر عنه، وإن كانت من داخل النفس: فهي الحواس الظاهرة والباطنة، والنظر العقلي المتدبِّر بحدوده وضوابطه.

وكذلك فطر الله تعالى الإنسان على معرفة أمور كثيرة يحتاج إليها في حياته، ومن أعظم هذه الأمور: المعرفة الفطرية المغروزة في نفسه عن الله تعالى ووحدانيته وقدرته، كما جاء في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ.

وإذا كانت الحواس هي وسيلتنا للتعرف على عالم الشهادة أو الطبيعة (الآفاق والأنفس)، وكذلك العقل وسيلة ثانية؛ فإن كلاً منهما لا يستطيع أن يعمل في مجال عالم الغيب ـ والإيمان به من أركان العقيدة الإسلامية ـ ولذلك فإن المصدر الذي

نستقي منه العقيدة، ينبغي أن يكون مصدراً صحيحاً ثابتاً موثوقاً، لا يخطئ ولا ينحرف. وإذا كان العقل البشري محدوداً وقاصراً، فإن الفطرة ـ وهي طريق صحيح ومصدر معتبر في ذلك ـ قد يطرأ عليها ما يغشّيها ويحرفها عن صوابها، فتحتاج إلى ما يجلوها ويصحح مسارها ويمنعها من الانحراف، وذلك هو الوحي (القرآن والسنّة) الذي تكفّل الله تعالى بإنزاله هداية للناس ورحمة بهم[1].

وسننظر في المنهج الذي سلكه القرآن الكريم في بيان العقيدة الإسلامية وغَرْسها في النفوس وتثبيتها في القلوب، ليكون لها أثرها في السلوك.

إن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذا الإنسان، وهو أعلم بمن خلق، وهو الذي يعلم الطريقة الصحيحة في بيان حقائق العقيدة وأصولها، وبيان الحقائق الكبرى في هذا الوجود الذي يتعامل معه الإنسان. لذا نرى القرآن الكريم ينهج نهجاً خاصاً متميزاً في مخاطبة الإنسان وبيان حقائق التصور للوجود وأصول العقيدة الإسلامية، وسنُلْمِع إلى هذه الخصائص أولاً، ثم نعرض وسائل هذا المنهج ومسالكه بما يتفق مع طبيعة هذا البحث الموجز.

خصائص المنهج القرآني:

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «إن المنهج القرآني في

---

(١) انظر: «عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي» د. عثمان ضميرية ص(٢١ ـ ٤١).

عرض مقوّمات التصور الإسلامي يمتاز عن كل المناهج:

أولًا: بكونه يعرض «الحقيقة» كما هي في عالم الواقع، في الأسلوب الذي يكشف كل زواياها، وكل جوانبها، وكل ارتباطاتها، وكل مقتضياتها. وهو مع هذا الشمول، لا يعقّد هذه الحقيقة، ولا يلفّها بالضباب! بل يخاطب بها الكينونة البشرية في كل مستوياتها.. ولم يشأ الله ـ سبحانه ـ رحمة منه بالعباد أن يجعل مخاطبتهم بمقوّمات هذا التصور، أو إدراكهم لها، متوقفاً على درجة معيّنة من العلم.. لأن العقيدة هي حاجة حياتهم الأولى، والتصور الذي تنشئه في عقولهم وقلوبهم هو الذي يحدّد لهم طريقة تعاملهم مع الوجود كله، ويحدّد لهم كذلك طريقة اتجاههم لتعلُّم أي علم، ولطلب أية معرفة... لهذا السبب لم يجعل الله إدراك هذه العقيدة متوقفاً على علم سابق... ولسبب آخر كذلك: هو أن الله يريد أن يكون التصور الذي تنشئه العقيدة هو قاعدة علم البشر ومعرفتهم ـ بما أنه هو قاعدة تصورهم وتفسيرهم للكون من حولهم، ولما يجري فيه ولما يجري فيهم ـ كي يقوم علمهم وتقوم معرفتهم على أساس من الحق المستيقن الذي ليس هنالك غيره حق مستيقن. ذلك أن كل ما يتلقاه الإنسان وكل ما يصل إليه ـ عن غير هذا المصدر ـ هو معرفة ظنية ونتائج «محتملة» لا «قطعية». حتى ذلك «العلم التجريبي» فطريق العلم التجريبي هو القياس، لا الاستقراء والاستقصاء. فما يتسنى للبشر الاستقراء والاستقصاء في أية تجربة. هذا على فرض صحة جميع الملاحظات والاستنتاجات والأحكام البشرية على الظواهر! إنما قصارى

«العلم» أن يقوم بعدد من التجارب ثم يقيس على نتائجها. والعلم نفسه يسلم بأن النتائج الناشئة عن هذا القياس ظنية محتملة لا يقينية قطعية وذلك بالإضافة إلى أن نتيجة كل تجربة على حدة تقوم على ترجيح أحد «الاحتمالات» لا على القطع الحتمي. فلم يبق من علم مستيقن يمكن أن يحصل عليه البشر إلا العلم الذي يأتيهم من عند العليم الخبير، والذي يقصّه عليهم من يقصّ الحق، وهو خير الفاصلين...

وثانياً: **بكونه مبرأ من الانقطاع والتمزق الملحوظَيْن في الدراسات «العلمية» والتأملات «الفلسفية» والومضات «الفنية» جميعاً**، فهو لا يفرد كل جانب من جوانب «الكل» الجميل المتناسق بحديث مستقل كما تصنع أساليب الأداء البشرية. وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول، يرتبط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب. وتتصل فيه حقائق الكون والحياة والإنسان بحقيقة الألوهية وتتصل فيه الدنيا بالآخرة، وحياة الناس في الأرض بحياة الملأ الأعلى... في أسلوب تتعذر مجاراته أو تقليده. لأن الأسلوب البشري عندما يحاول تقليده في هذه الخصيصة، تبدو فيه الحقائق مختلطة غامضة مضطربة، غير واضحة ولا محددة ولا منسقة كما تبدو في المنهج القرآني!

وهذا الاتصال والارتباط في عرض جملة الحقائق في السياق القرآني الواحد قد يختلف في التركيز في أي منها بين موضع وموضع. ولكن هذا الترابط يبدو دائماً فعندما يكون التركيز في موضع من السياق القرآني مثلاً على تعريف الناس بربهم الحق، تتجلى هذه الحقيقة الكبيرة في آثار القدرة الإلهية

الفاعلة في الكون والحياة والإنسان. في عالم الغيب وعالم الشهادة سواء... وعندما يكون التركيز في موضع آخر على التعريف «بحقيقة الكون»، تتجلى العلاقة بين «حقيقة الألوهية» وحقيقة الكون، ويتطرق السياق كثيراً إلى حقيقة الحياة والأحياء، وإلى سنن الله في الكون والحياة... وعندما يكون التركيز على «حقيقة الإنسان» يتجلى ارتباطها بحقيقة الألوهية، وبالكون والأحياء، وبعالم الغيب وعالم الشهادة على السواء.. وعندما يكون التركيز على الدار الآخرة تذكر الحياة الدنيا وترتبطان بالله، وبسائر الحقائق الأخرى.. وكذلك عندما يكون التركيز على قضايا الحياة الدنيا.. إلى آخر هذا النسق من العرض، الواضح الملامح في القرآن.

ثالثاً: بكونه - مع تماسك جوانب «الحقيقة» وتناسقها - يحافظ تماماً على إعطاء كل من جوانبها - في الكل المتناسق - مساحته، التي تساوي وزنه الحقيقي في ميزان الله - وهو الميزان - ومن ثم تبدو «حقيقة الألوهية» وخصائصها وقضية «الألوهية والعبودية» بارزة مسيطرة محيطة شاملة، حتى ليبدو أن التعريف بتلك الحقيقة، وتجلية هذه القضية هو موضوع القرآن الأساسي. وتشغل حقيقة عالم الغيب بما فيه القَدَر والدار الآخرة مساحة بارزة. ثم تنال حقيقة الإنسان، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، أنصبة متناسقة تَنَاسُق هذه الحقائق في عالم الواقع... وهكذا لا تدغم حقيقة من الحقائق، ولا تهمل، ولا تضيع معالمها، في المشهد الكلي الذي تعرض فيه هذه الحقائق.. وكما أن هذه الحقائق لا يطغى بعضها على بعض في

التصور الإسلامي ذاته - حيث لا ينتهي الإعجاب بالكون المادي ودقة نواميسه، وتناسق أجزائه وقوانينه.. إلى تأليهه - كمؤلهة العوالم المادية والأكوان الطبيعية قديماً وحديثاً!- ولا ينتهي الإعجاب بعظمة الحياة، واهتدائها إلى وظائفها، وتناسقها مع نفسها ومع المحيط الكوني إلى تأليهها - كأصحاب المذهب الحيوي!- ولا ينتهي الإعجاب بالإنسان وتفرّده في خصائصه والاستعدادات الكامنة في كيانه، المنطلقة في تعامله مع الكون.. إلى تأليه الإنسان، أو «العقل» في صورة من الصور - كالمثاليين في عمومهم!- ولا ينتهي الإجلال للحقيقة الإلهية ذاتها إلى إنكار وجود العوالم المادية أو احتقارها، أو احتقار الكائن الإنساني - كالمذاهب الهندوكية والبوذية والنصرانية المحرَّفة!-.. كما أن هذا التوازن هو طابع التصور الإسلامي ذاته، فكذلك هو طابع منهج العرض القرآني لمقومات هذا التصور والحقائق التي يقوم عليها. بحيث تبدو كلها واضحة في المشهد الفريد الذي يرسمه للكل في السياق القرآني الواحد! وهي خصيصة قرآنية لا يملكها الأداء الإنساني!

رابعاً: بتلك الحيوية الدافقة الموحية - مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم - وهي تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعاً وروعة وجمالًا، لا يتسامى إليها المنهج البشري في العرض، ولا الأسلوب البشري في التعبير. ثم هي في الوقت ذاته تعرض في دقة عجيبة، وتحديد حاسم، ومع ذلك لا تجور الدقة على الحيوية والجمال، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة!

ولا يمكن أن نصف نحن، في الأسلوب البشري، ملامح

المنهج القرآني فنبلغ من ذلك ما يبلغه تذوق هذا المنهج[١].

إجمال المنهج القرآني في بناء العقيدة:

إن القرآن دعوة للناس جميعاً، على اختلاف حظوظهم من العقل والقدرة على التفكير، كان منه ما يتجه للقلب ليتفتح للموعظة؛ وكان منه ما يتجه للعقل ليذعن للمنطق والدليل. وكان منه، بجانب هذا وذاك، ما يشتمل على الحقيقة سافرة يفهمها الجميع؛ وكان منه ما يجيء في شكل أمثال «ما يعقلها إلا العالمون». وهذا «لأن الأمثال والتشبيهات هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار»[٢]؛ من أجل هذا كله، كان القرآن حَرِيّاً أن يصل إلى ما أراد من الهداية وتبيين الحق من الباطل، فيما كان الناس فيه من أمر مريج قبل نزوله، مما يتصل بالله والعالم والإنسان.

والقرآن نزل بين العرب وبلغة العرب، بعد فترة من نزول اليهودية والنصرانية، فترة اختلط فيها الباطل بالحق، ودخل ـ على مَرِّ الزمن ـ في ما أوحاه الله من قبل من الدين الصحيح ما ليس منه، وبسبب هذا ابتعد العالم كثيراً أو قليلاً عن العقيدة الحقة. كان لا بد إذاً من أن يتجه القرآن لتصحيح العقيدة قبل كل شيء ولبيان الحق فيما كان عليه الناس في بلاد العرب التي كان يتمثل فيها الديانات والمِلَل المختلفة العديدة.

---

(١) انظر: «مقومات التصور الإسلامي» سيد قطب ص(٦٥ ـ ٦٨).

(٢) انظر: «الكشاف» للزمخشري ١٩١/٣.

حقيقة ـ فضلاً عمن كان من العرب اليهود في «يثرب»، المدينة التي هاجر إليها الرسول فيما بعد، والنصارى في اليمن ـ كان من العرب أيضاً الوثنيون، الذين وإن كانوا جميعاً عبدة أوثان وأصنام، كانوا مع هذا يختلفون فيما بينهم في اعتقاداتهم الدينية كما كان من العرب أخيراً نفر قليل من الموحدين الذين وصلوا إلى إدراك طرف من الحقيقة بتفكيرهم[١].

وعلى هذا يمكن أن نلمح منهجاً متكاملاً لبيان العقيدة، ونفصّله في المناهج الآتية:

أولاً ـ المنهج الفطري أو الوجداني:

يقرّر القرآن الكريم حقيقة كبيرة، وهي أن الإنسان قد خلقه الله تعالى على فطرة سليمة تتجه إلى بارئها وتلجأ إليه، فقد جبلت النفوس على معرفة الله تعالى منذ أن أخذ الله تعالى العهد على بني آدم حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ . . .﴾[٢].

وكل مولود في هذا الوجود إنما «يولد على الفطرة»، ولذلك يخاطب الله تعالى الإنسان ويذكّره بهذه الفطرة، بأسلوب عاطفي حيٍّ، ليوقظ إحساسه بأمور الإيمان والعقيدة، وأهمها

---

(١) انظر: «نشأة الفكر الفلسفي» د. النشار: ٣١/١ ـ ٣٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: (١٧٢).

توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة وما يتفرع عن ذلك من قضايا الاعتقاد، وليزيل عن هذه الفطرة ما قد يغشيها أو يحرفها عن طريقها السوي من مؤثرات أسرية أو اجتماعية، أو من عادات وتقاليد وأوهام وخرافات، أو من غواية وشهوات ومصالح مادية تهبط بالإنسان وتنحرف به عن الجادة.

يقول الأستاذ محمد المبارك: «فالقرآن يخاطب الإنسان ويثيره عن طريق منافعه ومصالحه وحاجاته وملذاته، وعن طريق قضاياه ومشكلاته، ليحرك تطلعه وقلقه إلى معرفة الحقيقة ذات الصلة بحياته الحاضرة ومصيره البعيد، ويجعله بذلك متهيئاً للتفكير في الله، ومستعداً لقبول نتائج المنطق السليم مع منفعته»[1].

وليس الوجدان هو الإحساس أو صفة من صفاته، ولكنه وعاء الشعور بما ينشأ عن إدراك المعاني.

والقرآن الكريم يثير الوجدان بطريقته الجميلة المعجزة، ويزيل الغشاوة التي ترين على القلب وتجعل الحسَّ يتبلَّد، ويعرض آيات الله في الكون في صورة حية ينفعل بها الوجدان كأنها جديدة يشهدها الإنسان لأول مرة. وحين ينفعل بها الوجدان ويتأثر ويتحرك الخيال لتتبُّع المشهد المعروض، وتتحرك المشاعر بشتى الانفعالات، عندئذ يوجهه إلى أن وراء هذه المشاهد كلها قدرة الله المعجزة، وأن صانعها وبارئها هو الله..

---

(١) انظر: «العقيدة في القرآن»، محمد المبارك، ص(٨١).

فينبغي إذن عبادة ذلك الإله القادر، والتوجه إليه وحده بالعبادة دون سواه، والتلقّي عنه في كل أمر من الأمور. بهذه الطريقة الوجدانية الحيَّة يتحدث القرآن الكريم عن الكون بضخامته ودقته المعجزة، وعن ظاهرة الموت والحياة، وإجراء الرزق، وإجراء الأحداث، وقدرة الله التي لا تُحدّ، وعلم الله الشامل للغيب. كل ذلك بطريقة فذة، تجعل الإنسان يستقبل هذه الأمور كلها كأنه يراها ويلاحظها لأول مرة، فينفعل بها وجدانه ويستيقظ لحقيقة الألوهية.

أ ـ ففي آيات الله الكونية، يعرض لنا القرآن الكريم جوانب منها بطريقة تصويرية أخّاذة، ويرسم لها صورة شاملة متكاملة، ويطوّف بنا في مجالات رحبة كثيرة ثم يخلص إلى النتيجة والتوجيه والقناعة الوجدانية:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ

يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾[1].

ب ـ ويتحدث القرآن الكريم كثيراً عن **ظاهرة الموت والحياة،** ليهز الوجدان بهذه الظاهرة المعجزة التي كثيراً ما يمرّ الإنسان بها دون أن يلتفت إليها، أو دون أن يعطيها حقها من الاهتمام، مع أنها جديرة أن تبعث في نفسه هذا التساؤل: من الذي خلق الحياة في هذه الخلية الحية؟ وعندما تموت هذه الخلية، من الذي سلبها هذه الحياة؟ ولماذا لا تستمر هذه الحياة؟... إلخ.

هنا يجيء جواب الفطرة ومنهج الفطرة في القرآن، يزيل الغشاوة عن النفوس، ويتحدث عن الموت والحياة حديثاً يهز الوجدان فيصحو من تبلُّده، ويتيقظ لحقيقة الألوهية التي يرجع إليها الموت والحياة، كقوله تعالى:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾[2].

وليس هذا في مجال الإنسان فحسب، بل في المخلوقات الأخرى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾[3].

ج ـ ومن أشد الأمور التي تربط القلب بالله وتحرك الفطرة والوجدان: **قضية الرزق الذي يفيضه الله تعالى على الإنسان**

---

(١) سورة النحل، الآيات: (١٠ ـ ١٨).

(٢) سورة الملك، الآية: (٢١).

(٣) سورة الزمر، الآية: (٢١).

دائماً، فقد تكفَّل الله تعالى للإنسان بكل ما يحتاجه، من طعام وشراب وملبس ومسكن وهواء، ومن تسخير لكل الموجودات كي ينتفع بها الإنسان، وتسييرها على نظام يتفق مع حياة الإنسان وحاجاته.

ويعرض القرآن الكريم موضوع الرزق بطريقة توقظ الفطرة وتحرك الوجدان لمعرفة الله تعالى وأنه المتفرد بهذا الرزق والعطاء، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين، وأن الأرزاق كلها من عند الله، وأن الإنسان مهما بذل من جهد، فهو لا ينشئها في الحقيقة، وإنما يعمل فيها بسنّة الله ومشيئته ـ ولكن المنشئ والخالق هو الله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾[١].

فإذا كان الأمر كله لله تعالى في إنبات الزرع، وفي إنزال الماء من المزن، وفي تيسير النار والوقود. . . فإن في هذا كله تذكرة وتبصرة، فينتهي السياق حين يهز الوجدان بذلك العرض كلّه، بدعوة الإنسان ـ وهو في حالة تأثره وانفعاله الوجداني ـ أن يسبح باسم ربه العظيم الذي أفاض عليه كل تلك الأرزاق!

---

(١) سورة الواقعة، الآيات: (٦٣ ـ ٧٤).

د ـ وتجري الأحداث حول الإنسان وفي خاصة نفسه من مولده إلى مماته، بعضها أحداث كونية كالليل والنهار وتعاقبها المستمر، وطلوع الشمس وغروبها وطلوع القمر وتدرّج أوجهه من أول الشهر حتى يكون بدراً، ثم يتضاءل حتى يختفي، والسحاب والمطر والبرق والرعد وتعاقب الفصول... إلخ وبعضها أحداث في محيط البشر من ميلاد وموت وصحة وضعف، وطفولة وشباب وكهولة وشيخوخة، وغنى وفقر، وعزّ وذلّ... إلخ.

تمر هذه الأحداث على المؤمن فيجد لنفسه فيها عبرة، يعلم أن من ورائها تدبيراً حكيماً لإلهٍ حكيم ـ هو الذي يُجري الأحداث بعلمه وحكمته وقدرته، وهو الذي يدبِّر أمر الكون كله، فلا يَحدث في هذا الكون الهائل العريض إلا ما يُرده الله، ولا يتم أمر من أمور الكون إلا على الصورة التي يريدها الله. أما الغافل فلا يتنبَّه لما فيها من دلالة على وجود الله تعالى وتفرُّده بتدبير الأمر كله، فيجيء القرآن ليهزَّه من غفلته ويطلعه على حقيقة الأمر، ويزيل الغشاوة عن النفس، فينفعل الوجدان ويتيقظ القلب، كقوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[1].

فقد حشر الله تعالى في هذه الآية الكريمة كثيراً من

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٦٤).

الأحداث الجارية في سياق واحد، وربط الوجدان بهذه الأحداث عن طريق لَفْت الحس إلى الحركة الدائبة في هذا الكون، حتى وصل إلى الغاية المقصودة في رؤية آيات الله الكونية وأنها لا تحدث من تلقاء نفسها ولكن وراءها تدبيراً وحكمة.

هـ ـ أما علم الله للغيب:

فإنه علم شامل محيط بكل جانب من جوانبه في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل، وقد يحاول الإنسان شيئاً من ذلك بوسائل وأسباب، ولكنه يعجز عنه، أما الله سبحانه وتعالى فإنه يعلم الغيب كله، لأنه هو العليم بكل ما في السموات والأرض، وكل ما حدث وما يحدث، لأنه منشئ الأحداث، والقرآن الكريم ينبِّه الوجدان البشري إلى هذه الحقيقة: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾[1].

ففي الآية الكريمة دليل على عظمة الله وشمول علمه للغيب في كل المجالات التي ضربت الآية أمثلة عليها: في مجال الإنسان، وفي مجال الحيوان.. ما تحمل كل أنثى.. فمن الذي يحصي هذا كله ومن الذي يعلم خصائص كل حمل

---

(١) سورة الرعد، الآيات: (٨ ـ ١١).

تحمله كلُّ أنثى... إنه لا أحد يستطيع ذلك إلا الله تعالى الذي جعل كل شيء عنده بمقدار، ولا يغيب عنه إسرار بالقول ولا خطرات في النفس... فأين يغيب عن الله شيء واحد من أعمال الإنسان؟ فالكل مسجَّل ومحفوظ وسيُجْزَىٰ الإنسان عليه:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾[1].

وهنا يجدر التذكير بأن هذا المنهج الوجداني أو الفطري الذي يسلكه القرآن الكريم لغرس العقيدة لا يقتصر على جانب واحد من جوانبها، فهو يعمل في مجال الإلهيات: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾[2].

وفي مجال النبوات: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[3].

وفي السمعيات أيضاً: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾[4].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (٥٩).
(٢) سورة إبراهيم، الآية: (١٠).
(٣) سورة التوبة، الآية: (١٢٨).
(٤) سورة الرعد، الآية: (٥).

وفي التربية على مقتضيات العقيدة والإيمان: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

وفي ختام هذه الفقرة، حسبنا أن نؤكد أن القرآن الكريم يلفت النظر إلى خصائص الفطرة والمواقف العملية التي تعيد إليها نقاءها وصفاءها، باعتبار أن هذا كله يصلح منهجياً إلى اعتبار الفطرة قاعدة من القواعد الهامة التي تنضم إلى قواعد أخرى فيتكون منها جميعاً منهج خاص يتميز به الإسلام حين يصطنعه منهجاً لبناء العقيدة الحقّة في نفوس الأفراد والجماعات[1].

ثانياً ـ المنهج العقلي:

إن المنهج العقلي الذي يسلكه القرآن الكريم لبيان العقيدة وغرسها في النفوس يأتي متناغماً مع المنهج الفطري ومتكاملاً معه. ولذلك فإن القرآن الكريم لم يكن مقصوراً على مجرد الخبر عن وجود الله تعالى ووحدانيته وسائر أركان العقيدة، وإنما أقام البراهين العقلية التي بها تعلم العلوم الإلهية، فكان منهجه ـ ومنهج جميع الأنبياء عليهم السلام ـ الجمع بين الأدلة العقلية والسمعية (الشرعية)[2].

---

(١) انظر بالتفصيل: «ركائز الإيمان» للأستاذ محمد قطب ص(٢٢) وما بعدها، «القائد إلى تصحيح العقائد» للمعلمي ضمن كتابه «التنكيل»: ٢/٢٠٥ وما بعدها، «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» لابن الوزير، ص(١١)، «مداخل إلى العقيدة الإسلامية» د. يحيى هاشم فرغل، ص(٣٢ـ٤٦)، «عقيدتنا وصلتها بالكون والإنسان والحياة» د. طه الدسوقي، ص(١١٤ ـ ١١٩). «منهج القرآن في التربية» محمد شديد، ص(٨١ـ٩٩).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٩/٢٢٦ ـ ٢٢٧، وانظر: «أحكام القرآن» للجصّاص: ١/٣٥ ـ ٣٦، «مدارج السالكين» لابن القيم: ٣/٤٩٢، «مدخل لدراسة العقيدة» د. عثمان ضميرية، ص(١٦٥).

يقول ابن تيمية: فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية دلَّ عليها القرآن وهدى الناس إليها، فإن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن، ومخلوقاً من نطفة ثم من علقة... فإن هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم. فهو إذن عقلي لأنه بالعقل تُعْلَم صحته، وهو شرعي أيضاً[1].

والإسلام ينوِّه تنويهاً كبيراً بالعقل، ويُعلي من مكانته وقيمته، ونجد شاهداً على ذلك في الآيات القرآنية الكريمة التي تنزّلت بشأنه، فالعقل هو هبة الله العظمى للإنسان ولذلك جعله الله تعالى سبباً للتكليف ومناطاً للمسؤولية، وحث على استعماله فيما خلق له وفي المجال الذي يستطيعه، ورسم له المنهج الصحيح للعمل والتفكر، وأحال عليه في القضايا الكبرى الرئيسية كمعرفة الله تعالى ووحدانيته، وصحة النبوة والبعث بعد الموت، فإن إدراك هذه القضايا إدراكاً كلياً عاماً إنما يكون بالعقل. وإن كان هذا لا يعني أن نجعل العقل حاكماً على مقرَّرات الدين، فإن العقل من شأنه أن يتلقى من الوحي، وأن يفهم ويدرك، فإن للعقول حدّاً تنتهي إليه لا سبيل لها إلى مجاوزتها[2].

---

(١) انظر: «النبوات» لابن تيمية ص(٤٨). وانظر أيضاً: «قانون التأويل» لابن العربي، ص(٤٥٩).

(٢) انظر تفصيلاً لذلك كله في: «مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية» ص(١٨٣ ـ ١٩٦)، «عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي» ص(٢٦ ـ ٢٩).

والقرآن الكريم يخاطب العقل ويقنع الإنسان بالمنطق السهل المؤثِّر في النفس، بأسلوب حيّ جذاب، حيث يوجِّه نظره إلى آيات الله في الكون والرزق والحياة والموت والأحداث الجارية كما سبق الحديث عنها في المنهج الفطري الوجداني، ولكنه، مرة أخرى، يعرض لها بأسلوب ومنهج عقلي يؤدي في النهاية إلى الغاية ذاتها، وهي إدراك حقيقة الألوهية، وما يتفرع عنها من حقائق وقضايا الإيمان والعقيدة.

ففي مجال الألوهية: يعرض القرآن الكريم آيات القدرة والخلق ومظاهر الموت والحياة فيقول: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ...﴾[1].

وقد تقدمت هذه الآيات الكريمة في المنهج الفطري، وهي كذلك مثال على المنهج العقلي، لما فيها من أسلوب منطقي يتصف بالحيوية، لما في من الأسئلة الموجهة إلى المخاطب، والإجابة عنها، إلى أن يصل إلى النتيجة المطلوبة التي بدئ بها لإيراد الدليل عليها مع تعدد الأمثلة المأخوذة من حياة الإنسان وما يحيط به.

ولو تأمل الإنسان بعقله وفكره آيات الله المبثوثة في الأرض، وفي النفس، وفي الآفاق، لأيقن بأن وراء هذه الآيات قدرة الله

---

(١) سورة الواقعة، الآيات: (٥٧ ـ ٧٤).

تعالى، وأنها دليل على وحدانيته، فيجب طاعته والالتزام بأمره ونهيه، وخلع ما يعبد من دونه من الأنداد والشركاء؛ قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[1].

وبالأسلوب العقلي المنطقي أيضاً تأتي أدلة الوحدانية، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾[2].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾[3].

وجميع الأدلة المعروفة في علم الكلام والفلسفة مبثوثة في القرآن، ولكن بطريقة حية وبأسلوب يمكن أن تفهمه الخاصة والعامة، كلٌّ بقدر طاقته.

ومن هذه الطرائق المنطقية طريقة تعرف في الرياضيات بتمديد الخط البياني، فإذا أمكن معرفة جزء منه أمكن معرفة باقيه واستخراج المعادلة المعبِّرة عنه[4]. فاستمع إلى هذه الآيات الكريمة التالية:

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: (٢٠ ـ ٢١).

(٢) سورة المؤمنون، الآية: (٩١).

(٣) سورة الأنبياء، الآيات: (٢١ ـ ٢٤).

(٤) انظر: «العقيدة في القرآن»، للمبارك ص(٨٠)، وانظر: «ترجيح أساليب القرآن» لابن الوزير، ص(١٥ ـ ٢٢).

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾[1].

وفي مجال النبوات أيضا، يخاطب القرآن الكريم العقل ويوجهه إلى معرفة صدق النبي ومصدر القرآن وأنه هو الوحي المنزّه عن الخطأ والاختلاف: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[2].

فإن سلامة القرآن من الاختلاف والتناقض مع سلامته في الأسلوب الذي يجري على منهج واحد، دليل عقلي على أنه من عند الله تعالى، فلو كان من عند غير الله لظهر فيه ذلك التفاوت[3].

وفي السمعيات؛ يقيم القرآن الكريم الدليل العقلي على البعث والحساب، فإن العقل يمنع أن تكون الحياة عبثاً، وأن يترك الإنسان سدىً دون تكليف ولا محاسبة ولا جزاء يفرق فيه بين المؤمن والعاصي، فيقول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ . . .﴾[4].

وكذلك يحكم العقل بأن من قدر على الخلق في المرة الأولى فهو على الإعادة أقدر: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: (٧٨ ـ ٨٢).

(٢) سورة النساء، الآية: (٨٢).

(٣) انظر: «تفسير الفخر الرازي»: (١٠/٢٠٢).

(٤) سورة القيامة، الآية: (٣٦).

﴿يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٧﴾[1].

والذي ينبغي أن نُلْمِحَ إليه في آخر كلامنا على المنهج العقلي: أن الإسلام بيَّن للعقل الطريق الذي ينبغي أن يسير فيه حين يريد النظر في مسألة بعينها، والطرائق مختلفة والأساليب متعددة، ولكل مسألة من المسائل ما يناسبها من طرائق النظر وأساليب الفكر.

فإذا كان موضوع النظر هو مسائل الألوهية؛ فإن العقل، أمامه طريقان: **أحدهما**: أن ينظر في الكون ويتأمله ليستنتج من ذلك أن له موجداً، ثم ينظر في تناسق هذا الكون وانسجامه ليعلم أن موجده واحد عالم حكيم خبير....

والطريق الثاني: أن ينصت إلى هذا الإله الذي آمن به حينما يحدِّث عما يجب وعما يجوز وما يستحيل على هذا الإله من أسماء وصفات..

أما حين يكون الحديث في مجال آخر غير مجال الألوهية، كمجال النبوة مثلاً، فإن الإسلام يوجه العقل وجهة أخرى، فيطالبه بالنظر في إثبات دعوى النبوة من جهات ثلاث: الأولى: النظر في تاريخ مدّعي النبوة، والثانية: فيما جاء به هذا النبي من العقائد والشرائع، والثالثة: أن ينظر فيما ادعاه من الخوارق والمعجزات[2].

---

(١) سورة الروم، الآية: (٣٧).

(٢) انظر: «عقيدتنا وصلتها بالكون..» ص(١١٠ ـ ١١٣)، «التصور الإسلامي للكون والحياة» ص(٢٠ ـ ٣٩).

وأخيراً: فإن هناك توازناً وتناغماً بين هذا المنهج العقلي والمنهج الفطري السابق، وهذا أيضاً يمكن أن يكون منهجاً آخر، فنقول: إن القرآن يسلك منهجاً عقلياً ووجدانياً في الوقت نفسه لبيان حقائق العقيدة والإيمان.

ثالثاً ـ منهج الجدل والرد على الانحرافات:

ألمحنا فيما سبق إلى أن الفطرة قد تنحرف، وإلى أن الكتب السابقة قد دخلها التحريف والتبديل، فكان لهذا أثره في شيوع الانحرافات والضلالات عند الأمم السابقة، فكان لهم معتقدات وتصورات باطلة، وكان لهم شبهات طارئة، لذلك وقفوا وقفة جائرة ظالمة من دعوة النبي ﷺ إلى التوحيد، لذلك أبرز القرآن الكريم تلك الانحرافات وجادل أصحابها وأزاح شبهاتهم، وأقام عليهم الحجة بكل طريقة. ومن خلال الجدل والحِجَاج والرَّدّ والمناقشة لمعتقدات الجاهليين ـ أياً كانوا ـ تبرز العقيدة الصحيحة التي تتفق مع الفطرة السليمة ويقبلها العقل الصريح.

ومن أعظم الانحرافات والضلالات التي ردَّ القرآن الكريم على أصحابها: إنكار الألوهية والربوبية، والشرك فيهما، وإنكار البعث والنبوة، وانحراف اليهود في تصورهم للإله، وانحراف النصارى وشركهم حيث ادعوا أن لله ولداً وأنه ثالث ثلاثة. وهناك انحرافات أخرى تتمثل فيما كان عليه الصابئة والمجوس وغيرهم.

أ ـ فقد رد الله تعالى على منكري الربوبية، الذين نسبوا

الإحياء والإماتة إلى الدهر، وهم البذرة الأولى للإلحاد الذي عرفته بعض المجتمعات المعاصرة: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

وبذلك يبين القرآن الكريم أن الإلحاد لا يقوم على شيء من العلم، وإنما هي الظنون والأوهام والأهواء. وقد سبق في المنهج الفطري والعقلي ما يوضح أن وجود الله تعالى حقيقة لا يشك فيها عاقل، وأن الأدلة كلها قامت على ذلك، عقلاً وشرعاً وواقعاً.

ب ـ وردَّ القرآن الكريم على المشركين ألوان الشرك الذي وقعوا فيه، حيث عبدوا الأصنام، وبعضهم كانوا يعبدون الملائكة أو الجن، ويزعمون أنها تشفع لهم عند الله.. إلخ.

وبيّن القرآن الكريم حقيقة الأمر في ذلك بطريقتين:

الأولى: بيان أن الله تعالى وحده هو الخالق المدبِّر لهذا الكون، فلا أحد يشاركه في الخلق، ولا في التدبير: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾[2].

والطريقة الثاني: بيان عجز أولئك الشركاء عن أن يملكوا لأنفسهم نفعاً أو ضرّاً. فكيف ينفعون غيرهم أو يضرّونهم؟

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ

---

(١) سورة الجاثية، الآية: (٢٤).

(٢) سورة النمل، الآيات: (٥٩ ـ ٦٤).

نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ . . .﴾[1].

جـ ـ وعندما ادّعى المشركون العرب أن لله ولداً وبنات، متابعَة لليهود الذين قالوا إن عُزيراً ابن الله، والنصارى الذين قالوا عيسى ابن الله، ردّ الله تعالى عليهم ونزَّه نفسه عن ذلك فـقـال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾[2].

د ـ وعندما تنكَّر العرب للبعث والجزاء، وعجبوا من ذلك أشد العجب واستبعدوا أن يكون هناك حياة أخرى بعد الموت.. عندئذ حكى الله تعالى ذلك عنهم، ثم أقام الأدلة على البعث، بتوجيه أنظارهم وعقولهم إلى آيات الله في هذا الكون وقدرته سبحانه التي تتجلى في عظمة هذه المخلوقات لأول مرة، فكيف لا يقدر على الخلق مرة أخرى، واسمع إلى هذه الآيات الكريمة بأسلوبها المعجز الأخّاذ. قال تعالى: ﴿. . . قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ . . . أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: (١٩١ ـ ١٩٨).

(٢) سورة الأنعام، الآيات: (١٠٠ ـ ١٠٢).

(٣) سورة ق، الآيات: (١ ـ ١٥).

هـ ـ ولما وقع اليهود والنصارى بالانحراف في تصورهم لله وقدرته ردَّ عليهم أفكاراً كثيرة كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾[1]. رداً على اليهود الذين زعموا أن الله استراح في اليوم السابع.

وعندما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه أو شعب الله المختار ردَّ عليهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾[2]... والآيات في ذلك كثيرة، حَسْبُنا منها هذه الإشارات[3].

رابعاً ـ منهج بيان العقيدة من خلال القضايا الاجتماعية:

وخلافاً كذلك للطريقة المجرَّدة الجافة، عرض القرآن لعقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر من خلال قضايا الإنسان الاجتماعية الكبرى، وفي مقدمتها تحرير الإنسان من العبودية للبشر في المجالين السياسي والاقتصادي. وقد وردت سورة طويلة بكاملها تدور حول هذين المحورين: التحرر من سلطان التأله السياسي، والتحرر من سلطان التأله المالي، وهي سورة القصص التي تبرز فيها شخصية (فرعون) القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ و(قارون) الذي ﴿كَانَ مِن

---

(١) سورة ق، الآية: (٣٨).

(٢) سورة المائدة، الآية: (١٨).

(٣) انظر: «خصائص التصور الإسلامي» ص (٢٩ ـ ٤٦)، «العقيدة في القرآن» ص(٨٣)، «ركائز الإيمان» ص(٧٦ ـ ٩٤)، «مداخل إلى العقيدة الإسلامية» ص(٦٣ ـ ٦٤).

﴿قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وكان الهلاك مآل فرعون وقارون، وكان البقاء لله وحده. وبهذه الفكرة تنهي السورة قصة المتألِّهين على الناس. فتنتهي بنا بقوة إلى عقيدة التوحيد والإيمان بالله وحده في هذه الآية الخاتمة للسورة: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾[1].

وكذلك التحرر من العبودية للبشر في المجال الديني: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[2].

خامساً ـ المنهج الإرادي العملي:

الإرادة البشرية مخاطبة في الإسلام منذ اللحظة الأولى التي يتعرض فيها الإنسان للإنذار، ثم لعوامل تصديق الرسول. واستجابة الإرادة لهذا الخطاب هي «التسليم» أو الاستسلام: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3]. ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾[4].

وفي هذا يقول الطحاوي: «ولا يثبت قَدَمُ الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حُظِر عنه علمه، ولم

---

(١) سورة القصص، الآية: (٨٨).

(٢) سورة التوبة، الآية: (٣١).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (٨٣).

(٤) سورة النمل، الآية: (٨١).

يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مَرامُه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً شاكاً زائغاً، لا مؤمناً مصدقاً ولا جاحداً مكذّباً»[١].

ويقول ابن السَّمْعَانِيّ: «الأصل في الدين الاتّباع، والعقول تَبَعٌ، ولو كان الدين بُنِي على المعقول وجب ألا يجوز للمؤمنين أن يقبلوا أشياء حتى يعقلوا. ونحن تدبَّرنا عامة ما جاء في أمر الدين؛ من ذكر صفات الله عز وجل، وما تعبد الناس من اعتقاده، وكذلك ما ظهر بين المسلمين وتداولوه بينهم ونقلوه عن سلفهم إلى أن أسندوه إلى رسول الله ﷺ من ذكر عذاب القبر وسؤال الملَكَين... أمور لا تدرك حقائقها بعقولنا، وإنما ورد الأمر بقبولها والإيمان بها، فإذا سمعنا شيئاً من أمور الدين وعقلناه وفهمناه، فللّه الحمد في ذلك والشكر، ومنه التوفيق.

وما لم يمكننا إدراكه وفهمه، ولم تبلغه عقولنا آمنا به وصدّقنا واعتقدنا أن هذا من ربوبيته تعالى»[٢].

وهنا نذكر بعض الآيات التي تتوجَّه إلى إرادة الإنسان مباشرة تقتضي منه التسليم. وهي على وجه خاص الآيات التي جاءت في صيغة التقرير.

---

(١) انظر: العقيدة الطحاوية «بيان السنّة» للطحاوي ص(٨٢)، ضمن كتاب «أصول الدين عند الأئمة الأربعة» د. القفاري.

(٢) انظر: «صون المنطق والكلام» للسيوطي ص(١٨٢).

ففي **الإلهيات**، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾[١].

وفي **النبوات**: يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[٢].

وفي **السمعيات**: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[٣].

هذه الآية وما سبقها، قد جاءت في صياغة تقريرية موجهة للإرادة للتسليم[٤].

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: (١٩، ٢٠).

(٢) سورة الفرقان، الآيات: (٢٠ ـ ٢٣).

(٣) سورة الإسراء، الآية: (١٤).

(٤) هذه الفقرة مقتبسة من «مداخل إلى العقيدة الإسلامية» للدكتور يحيى هاشم، ص(١١٨) وما بعدها.

سادساً: منهج تثبيت العقيدة والتذكير بالله:

وإذا كانت المناهج السابقة مسالك لبيان العقيدة، فإنها بعد وجودها وبيانها تحتاج إلى أن نتعهدها وأن نعمل دائماً على تثبيتها في النفس، ليكون لها الأثر الفعال في نفس صاحبها. ولذلك نجد في القرآن الكريم وفي السنَّة النبوية وسائل لتثبيت الإيمان في النفس البشرية.

والوسيلة الكبرى لذلك هي التذكير الدائم، التذكير بعظمة الله تعالى وآيات قدرته في الآفاق وفي النفس حتى يخشع القلب ويستسلم. والتذكير بأن الله مع الإنسان يراه ويراقبه ويحصي عليه أعماله، ثم يحاسبه عليها يوم القيامة حتى تصبح تقوى الله جزءاً لا يتجزأ من مشاعر القلب، وركيزة ثابتة في الضمير. كذلك يوجِّه القرآن القلبَ البشريَّ إلى ذكر الله دائماً في حالة السراء والضراء، ففي السراء يذكر الله شاكراً لأنعمه، وفي الضراء يذكر الله صابراً ومتطلعاً إليه سبحانه ليكشف عنه السوء. ويورد القرآن القصص التي تثبِّت الإيمان؛ قصص الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين الذين صبروا على الأذى حتى جاء نصر الله، وقصص الكفار الذين كذبوا وعاندوا حتى دمَّر الله عليهم بكفرهم. وأخيراً يرسم القرآن صوراً محببة للمؤمنين وصفاتهم، وما ينتظرهم من الجزاء في الآخرة مخلدين في الجنات، وصوراً كريهة منفِّرة للكافرين وصفاتهم وما ينتظرهم من الجزاء في الآخرة مخلدين في النار، وما ينالهم من العذاب يوم القيامة. ويظل القرآن يكرر هذه التوجيهات حتى ترسخ في النفس، وحتى يصبح الله حاضراً في القلب لا يغفل الإنسان عن

ذكره فتستقيم مشاعره، ويستقيم سلوكه، ويصبح عبداً ربانياً مقرباً إلى الله في الدنيا والآخرة، فيرزقه الله الطمأنينة والسعادة في الدنيا، ويمنحه في الآخرة جنته ورضوانه[1].



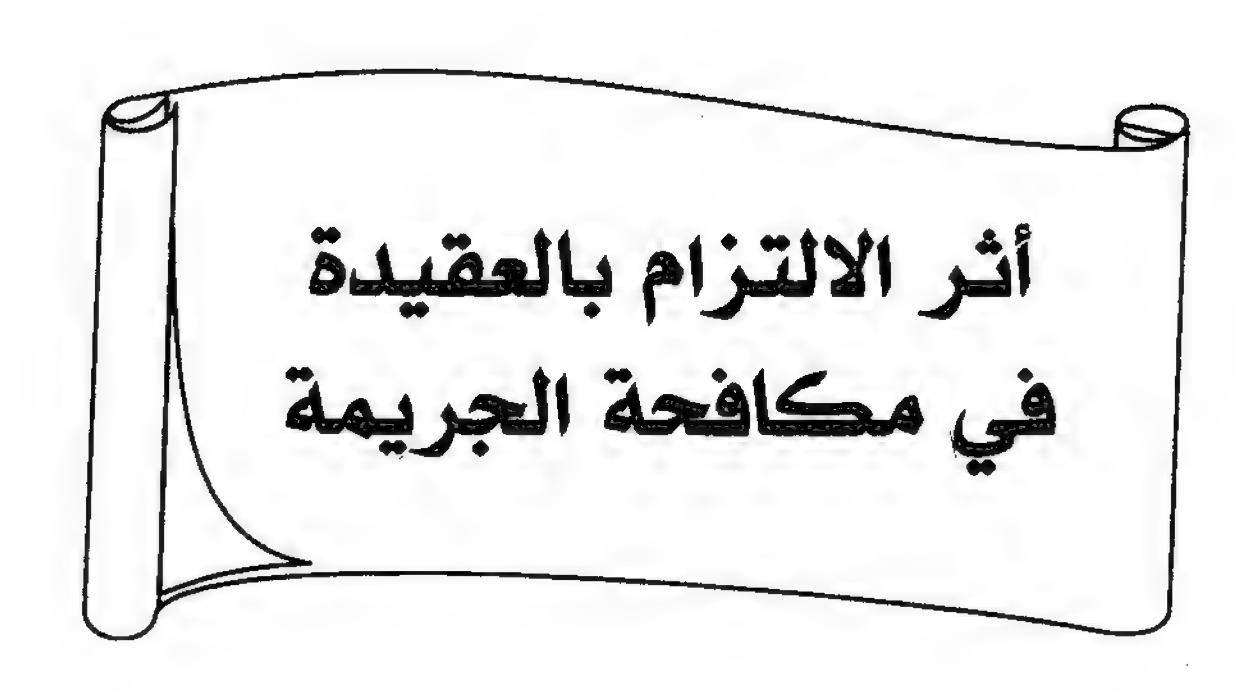
(١) انظر: «ركائز الإيمان» محمد قطب: ص(٩٥).

الفصل الرابع

أثر الالتزام بالعقيدة في مكافحة الجرائم

تمهيد:

أساس التجريم: مخالفة أوامر الدين.
ظاهرة الخير والشر في الحياة البشرية.
أثر الدين في الحياة الاجتماعية.
أثر العقيدة في تقويم السلوك.
ارتباط مكافحة الجريمة بالعقيدة والأخلاق.
أثر المسؤولية في محاربة الجريمة.
أساليب التربية الوجدانية وأثرها.
الضمير الديني وأثره في مكافحة الجريمة.
آثار الإيمان بالله في الوقاية من الجريمة.
آثار سائر أركان الإيمان.
التوبة ميلاد جديد للإنسان.



أثر الالتزام بالعقيدة في مكافحة الجريمة

تمهيد:

ألمحنا ـ فيما سبق ـ إلى أن الجريمة هي كل فعل محظور شرعاً، يعاقب عليه بحدٍّ أو تعزير. ويمكن إرجاع ذلك إلى الاعتداء على الضروريات الخمس للإنسان، وهي الأمور التي لا بد منها لاستقامة حياة الناس ومصالحهم، وإذا فُقِدت اختلَّ نظام حياتهم، ولم تستقم مصالحهم، وعمَّت الفوضى والمفاسد. والأمور الضرورية بهذا المعنى ترجع إلى حفظ خمسة أشياء: الدين، والنفس، والعِرض، والعقل، والمال. فحفظ كلٍّ واحدٍ منها ضروري للناس. وقد شرع الإسلام من الأحكام ما يكفل تحقيق هذه الضروريات بإيجادها وتكوينها من جهة، وشرع ـ من جهة ثانية ـ أحكاماً تكفل حفظها وصيانتها[1].

فالجريمة اعتداء على هذه الضروريات، أو على واحدٍ

---

(١) انظر بالتفصيل: «الموافقات في أصول الشريعة» للشاطبي: ٢/٥ وما بعدها، «علم أصول الفقه» للشيخ عبدالوهاب خلاف ص(١٩٧) وما بعدها.

منها، فالاعتداء على الدين رِدَّةٌ شرع لها الإسلام القتلَ، والاعتداء على النفس بالقتل شرع لها الإسلامُ القصاصَ، والاعتداء على العِرْض بالزنا أو القذف شرع له الإسلام الحدَّ، رجماً أو قذفاً حسب حاله، والاعتداء على المال بالسرقة يوجب القَطْعَ. والجناية أو الاعتداء على النظام العام في المجتمع تكون بقطع الطريق وهو الحرابة، وتكون كذلك بالبغي والخروج على حاكم المسلمين العادل، وشرع الإسلام الحدَّ لذلك.

وهناك جرائم أخرى كثيرة تقع على الحرمات وتقع على الحاجيات التي تكمل الضروريات.. ولها أيضاً عقوبة تعزيرية مفوَّضة للسلطة القضائية، تواجه كل جريمة من الجرائم بما يناسبها من العقوبة(١).

الأساس في اعتبار الفعل جريمة:

وهذا يقودنا إلى بيان الأساس الذي يقوم عليه اعتبار الفعل جريمة من الجرائم. وهذا الأساس في نظر الإسلام هو مخالفة أوامر الدين، ذلك هو الأساس الواضح البيِّن، بيد أنه يلاحظ أمران:

(أولهما): أن أوامر الإسلام كلّيّة لا جزئية، فالقرآن الكريم قد نص على عقوبة عدة جرائم تبلغ ستاً: هي البغي، وقطع الطرق، والسرقة، والزنى، وقذف المحصنات، والقصاص بكل

---

(١) انظر: «الجنايات في الفقه الإسلامي» ص(٣) وما بعدها. د.عثمان ضميرية.

شُعَبه، وزادت السنّة عقوبة شرب الخمر والرِّدَّة وغيرهما، وبقيت عقوبات لجرائم كثيرة لم يتناولها الكتاب أو السنّة بالتفصيل. وقد ترك ذلك لولي الأمر يقدِّر له عقوبات بما يتناسب مع المجرم، وبما يكون به إصلاح العامة، وسيادة الأمن بين الكافة، وذلك بالتعزير الذي هو الأصل الثاني من أصول العقاب في الإسلام.

(الأمر الثاني): أنه لا بد من ملاحظة أن هناك أصلًا جامعاً تنتهي إليه العقوبات الإسلامية، ومعنىً جامعاً يرجع إليه في كل عقوبة تقرّر بحكم التعزير، وذلك لأن التعزير تنفيذ لأمر ديني هو العمل على إصلاح الجماعة ومنع العبث والفساد، فلا بد أن يكون ثمة أساس ضابط، لما يعتبر جريمة وما لا يعتبر، وذلك الأساس لا بد أن يكون مشتقاً من مصادر الشريعة ومواردها وغاياتها ومراميها واتجاهاتها.

وإنه من المقررات الشرعية أن الشريعة جاءت لرحمة العالمين، ولإسعاد الناس في معاشهم، وهدايتهم إلى الخير في مآلهم، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[١] فالرحمة بالإنسان هي المعنى الذي جاء به الإسلام.

وإنه بالاستقراء ثبت أنه ما من أمر جاء في الشريعة إلا وقد كانت فيه المصلحة الإنسانية لأكبر عدد، ولذلك قرر الفقهاء أن الشريعة جاءت لحماية المصالح الإنسانية المعتبرة، التي هي

---

(١) سورة يونس، الآية: (٥٧).

جديرة بأن تسمى مصلحة، وليست هوى جامحاً، ولا لذة عاجلة، ولا شهوة منحرفة، وإن ذلك يتقاضانا أن نتكلم في المصالح التي اعتبرتها الشريعة وجاءت لحمايتها واعتبرت الاعتداء عليها إجراماً يستحق عقوبة مقرَّرة بحكم القرآن الكريم، أو عقوبة يفرضها وليُّ الأمر العادل الذي لا يكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٢٠٦﴾[1].

وإذا كانت المنفعة أقرب المذاهب الخلقية لتكون أساساً للقوانين الوضعية، كما قرر الفيلسوف «بنتام»، وقد جعلها أساساً للقوانين كلها فكذلك المصلحة الحقيقية هي الأساس في الشريعة الإسلامية، فكل ما شرعه الإسلام من نظم وأحكام أساسه المصلحة وهي تتحقق في كل مراميه ومقاصده، وما يخالفه مما يسمى منافع أو مصالح إن هو إلا انحرافات نفسية، أو منافع كمنافع الخمر والميسر «إثمهما أكبر من نفعهما»، وما لا نص فيه يجب أن يضع ولي الأمر عند تقرير عقوبة عليه أساس المصلحة المعتبرة التي تعد مخالفتها والاعتداء عليها ـ إيذاء يُعَدُّ جريمة توجب عقاباً.

وإن الذين بَنَوا القوانين على أساس مذهب المنفعة حرَّروا

---

(١) سورة البقرة، الآيات: (٢٠٤ ـ ٢٠٦).

معنى المنفعة المعتبرة تحريراً علمياً دقيقاً، كما فعل «بنتام» وكما فعل «جون استوارت ميل»، ولذلك يحق علينا أن نحرِّر معنى المصلحة في الإسلام ليتبين المقياس الدقيق الذي يقوم عليه التعزير، وليتحرر معنى الجريمة تحريراً لا يكون ثمة إبهام معه، لأنه إذا كانت المصلحة هي المطلوبة فالاعتداء عليها جريمة، فإن كان الاعتداء منصوصاً على عقوبته أذعنّا له وخضعنا، ولا نكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾[١] وإن كانت المصلحة لم يرد في الاعتداء عليها نصٌّ نظرنا فيما قرره فقهاء المسلمين لها من عقوبات، ومقدار الجدوى في علاجهم غير مقيدين بهذا العلاج، على أنا نتقيد بالمعنى الأساسي في العقوبات الإسلامية، وهو المساواة بين العقوبة والجريمة، وأن تكون من جنسها ما أمكن تنفيذ ذلك، وغير مقيَّدين أيضاً بواقعة المصلحة ذاتها، فإن الواقعة قد يكون فيها اعتداء على مصالح معتبرة في عصر وحال، ولا يعتبر فيها اعتداء على مصلحة في حال وفي عصر، فإن الناس يجدُّ لهم من القضاء بمقدار ما يُحدِثون من أحداث، وهكذا. والآن نبيّن المصلحة المعتبرة التي جعلها الإسلام أساساً، أو ثبت بالاستقراء لأحكام القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة أنها الأساس.

المصلحة المعتبرة في الإسلام:

إن الاستقراء أثبت كما قلنا أن الأحكام في الشريعة

(١) سورة النور، الآية: (٤٨).

الإسلامية كلها تشتمل على مصالح العباد، فما من أمر شرعه الإسلام بالكتاب أو السنّة إلا كانت فيه مصلحة حقيقية، وإن اختفت تلك المصلحة على بعض الأنظار، أو اختلف فيها أهل النظر، فمنشأ ذلك استيلاء تفكير آخر على عقل أحد الناظرين غشي عليه، فلم يدرك حقيقة المصلحة الثابتة في الشرع الإسلامي، كما يدَّعي بعض الناس في هذه الأيام أن المصلحة في إباحة الفائدة، ومحاولة جعلها غير داخلة في عموم الربا، وما يحسبه بعض الناس من أنه لا مصلحة في تقرير عقوبة الجلد في الزنى وعقوبة الجلد على القذف، وغير ذلك مما يكون السبب في خفاء المصلحة أمام أنظارهم هو تأثرهم بتفكير آخر، أو وجود شبهات من التقليد عندهم، كانت بمثابة الغيم الذي يحجب الشمس في رائعة النهار.

ومن الأمثلة الواضحة في ذلك: تحريم الخمر، فإن المصلحة فيه واضحة بيِّنة لكل ذي عقل مستقيم، حتى إن بعض العرب في الجاهلية قُدِّمت إليه الخمر فردّها قائلاً: لا أريد أن آخذ ضلالي بيدي. ومع ذلك يتحدث بعض الناس في خفاء وجه المصلحة في تحريم الخمر، ومنهم علماء، وما هي إلا غاشية من غواشي التأثر الفكري ببعض العادات لأقوام تحللوا من كل حريجة دينية، وأصبحوا وقد أصاب تفكيرهم رِقٌّ موضعي[1].

---

(١) انظر: «الجريمة في الفقه الإسلامي» لمحمد أبو زهرة ص(٣١ ـ ٣٤).

ظاهرة الخير والشر في الحياة البشرية:

إن معظم المذاهب الفلسفية والاجتماعية الحديثة قد ركزت على الجانب المادي وحده، واستصغرت حقيقة الروح وارتباطها بالنشاط الإنساني، وفي هذا تلتقي كل الأنظمة الوضعية والمذاهب الفلسفية، وأما المذهب الحق فهو ما يتمشى مع فطرة الإنسان ويعيش مع واقعه، والإسلام هو دين الفطرة والواقع، ومن هنا كانت نظرته للإنسان على أنه ذو طبيعة مزدوجة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1] فحينما تحكم الروح هذا الكيان المترابط المجتمِع فإن هذا يكون هو الوضع الطبيعي للإنسان الذي يتمشى مع نشأته وهو لا يكبت الجسد ونشاطه؛ وبهذا الازدواج كان الإنسان قابلاً لأن يتخذ وضع الخير أو الشر أي أنه على استعداد للخير واستعداد للشر، وقد قرر القرآن هذه الحقيقة فقال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾[2].

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾[3].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[4].

بل إن جانب الخير فيه أغلب إذا ترك وشأنه، لأنه خلق

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: (٢٨ ـ ٢٩).
(٢) سورة البلد، الآية: (١٠).
(٣) سورة الإنسان، الآية: (٣).
(٤) سورة الشمس، الآيات: (٧ ـ ١٠).

على الفطرة: «كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء»[1].

ولكن قبضة الطين التي خلق منها الإنسان، والدوافع الفطرية، والشهوات التي زُيِّن حبُّها، والعوامل الأخرى التي تتصل بالبيئة التي يتأثر بها الإنسان، كل هذه العوامل تدفع الإنسان ـ عند الغفلة عن رقابة الله ـ إلى الوقوع في الخطأ أو الجريمة، ولا يخلو مجتمع من هذه الجريمة، وإن كانت المجتمعات تختلف في مستوى هذه الجرائم وفي مدى شيوعها وانتشارها وفي طريقة معالجتها، وفي موقف الفرد وتوبته واستقامته بعد الوقوع فيها.

ويؤيد هذا: أن الجريمة ظاهرة قديمة منذ عهد ابْنَي آدم، حيث وقعت أول جريمة، وهي جريمة القتل، قصَّها الله تعالى علينا فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى

---

(١) أخرجه البخاري: ٢١٩/٣، ومسلم: ٢٠٤٧/٤ .وانظر: «التصور الإسلامي للكون والحياة» د. عثمان ضميرية.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾[١].

ولكن هذا لا يعني أن الجريمة ضربة لازب، فإن المجتمع فيه الخير والشر، فيه المجرمون والمستقيمون، والأتقياء والفجّار، وهذا المجرم ـ أيضاً ـ قد يستيقظ ضميره ويعود إلى نفسه فيدرك خطورة الجريمة وبشاعتها فيصبح من النادمين، وهذا يعني ـ كذلك ـ أن الندم على الوقوع في الجريمة ـ وهو عمل إيجابي عندئذ للإقلاع وعدم العَوْد ـ إنما هو خطوة على طريق التوبة وتصحيح المسار ومكافحة الجريمة واختفائها[٢]، وهذا يُسْلِمنا إلى بيان أثر العقيدة والإيمان ومقتضياتهما في مكافحة الجريمة واختفائها، من خلال بيان أثر الدين والعقيدة بعامة، ومن خلال استقراء أثر بعض أركان الإيمان ومقتضياته.

أثر الدين في الحياة الاجتماعية:

لا بد لكل اجتماع إنساني من نظم وقواعد يتخذها المجتمع أساساً لتنظيم الحياة الجمعية وتنسيق العلاقات التي تربط أفراده بعضهم ببعض وتربطهم بغيرهم. وهذه النظم والقواعد أنواع مختلفات. فمنها ما يتعلق بشؤون السياسة ونظم الحكم

---

(١) سورة المائدة، الآيات: (٢٧ ـ ٣١).

(٢) انظر: «دراسات في النفس الإنسانية» محمد قطب ص(٣٢٧ ـ ٣٤٢)، «خلق المسلم» للغزالي ص(٣٢ ـ ٤٤)، «الذريعة إلى مكارم الشريعة» للراغب الأصفهاني ص(١١ ـ ١٨)، «في ظلال القرآن» لسيد قطب ٨٧٤/٢ ـ ٨٧٧، «التصور الإسلامي للكون والإنسان» د.عثمان ضميرية، ص(٩٨ ـ ٩٩).

ومنها ما يتعلق بشؤون الاقتصاد، ومنها ما يتعلق بشؤون الأسرة ونظم الزواج والطلاق والقرابة والميراث، ومنها ما يتعلق بشؤون القضاء، ونظم المسؤولية والجزاء، ومقاومة المجتمع للجريمة، ورد الحقوق إلى أهلها، وطرق التقاضي وإجراءاته. ومنها ما يتعلق بشؤون الأخلاق والآداب والمثل العليا وقواعد التمييز بين الفضيلة والرذيلة والخير والشر وما يليق وما لا يليق، ومنها ما يتعلق بشؤون التربية والتعليم والتثقيف وإعداد النشء للحياة المستقبلة، ومنها أنواع أخرى كثيرة من هذا القبيل.

هذا ولا تستقيم حياة المجتمع، ولا يكتب له الاستقرار إلا إذا توافر في هذه النظم شرطان:

(أحدهما): أن تكون موائمة لطبيعة المجتمع، متفقة مع درجته في سلَّم التطور والرقي، متّسقة مع ظروفه وأوضاعه، محقِّقة لصالحه، مواتية لانطلاقه. فإن لم يتوافر فيها هذا الشرط فإنها تكون عناصر غريبة عن واقع حياته، متنافرة مع طبيعة بيئته، يتجرعها أفراده تجرعاً ولا يكادون يسيغونها، ويلاقون العنت في تطبيقها، فيقوى لديهم الاتجاه إلى مخالفتها وتعدِّي حدودها، وتصبح أغلالًا في أعناقهم، تعوق سيرهم وانطلاقهم، وتعوق سير المجتمع نفسه وانطلاقة، فتشمله الفوضى ويضطرب أمره ويختلّ نظامه.

(والشرط الثاني): أن يكون لها في نفوس الأفراد قدسيّة وحرمة وجلال، حتى ينضم إلى الوازع الخارجي الذي يحملهم حملًا على اتّباعها وازع داخلي ينبعث من نفوسهم، فيُحبِّب

إليهم السير عليها، ويُبَغِّضهم في الاتجاه إلى انتهاك حرماتها. وذلك أنه إذا فقد الوازع الداخلي واقتصر الأمر على الوازع الخارجي الذي يتمثل فيما يقرِّره القانون والعرف من عقوبة ومقاومة لمن يتعدّى حدود النظام الاجتماعي، فإنه يسهل حينئذ على الفرد الخروج على هذا النظام كلما تمكن من اتخاذ وسائل الحيطة والحذر والحيلة كيلا يقع تحت طائلة العقاب القانوني أو العرفي. فاختلال هذا الشرط يؤدي إلى الصراع بين النزعات الفردية والصالح العام، وإلى توهين العلاقات التي تربط بين الفرد والمجتمع، ومن ثم يؤدي إلى إشاعة الفوضى واضطراب الأمور.

ويختلف مبلغ توافر هذين الشرطين في النظم الاجتماعية تبعاً لاختلاف المصدر الذي تستخدمه هذه النظم. فهي إما أن تكون غير مستمدّة من دينٍ ما وإما أن تكون مستمدة من دين غير سماوي ودين صحيح.

فإذا كانت هذه النظم غير مستمدة من دينٍ ما، ومعروف أنها من وضع البشر اختل فيها الشرط الثاني، فلا يكون لها في نفوس الأفراد قدسيَّة ولا حرمة ولا جلال، لأن هذه الصفات تختص بها أمور الدين والعقيدة.

وقد يختل فيها كذلك الشرط الأول نفسه وهو اتفاقها مع طبيعة المجتمع وتحقيقها لصالحه؛ لأن واضعي القوانين كثيراً ما يتأثرون بنظرياتهم وآرائهم الخاصة فيبعدون بها أو ببعضها عن واقع المجتمع، ويأتون فيها بما لا يتفق مع طبيعته ولا يحقق

صالحه، أو بما لا يلائمه إلا في مرحلة خاصة من مراحل حياته ولا يلائمه فيما عداها من المراحل.

وإذا كانت هذه النظم مستمَدَّة من دين غير سماوي كقوانين الديانة البوذية، وقوانين «الفيدا» وقوانين «مانو» في الديانة البرهمية، وقوانين «الأبستاق» في الزرداشتية، توافر فيها الشرط الثاني، فتحظى لدى الأفراد بالقداسة، لأنها ترتبط بإيمانهم وعقائدهم، ولكن قد يختل فيها الشرط الأول وهو اتفاقها مع طبيعة المجتمع وتحقيقها لصالحه؛ لأنها، على الرغم من الثوب الديني الذي ترتديه في ظاهر الأمر، قد وضعها في الأصل أناس من البشر، وعقليات البشر كما قلنا عُرْضة للزلل والانحراف عن جادة الصواب، والإتيان بما لا يتفق مع طبيعة المجتمع ولا يحقق صالحه.

ولا يتوافر في هذه النظم الشرطان السابق ذكرهما تمام التوافر إلا إذا كانت مستمدة من تشريع سماوي ودين صحيح. لأن الشارع ـ جَلَّ وعَزّ ـ عليم بطبيعة كل مجتمع إنساني، ولا يفرض عليه من الشريعة والدين إلا ما يوائمه ويتّسق مع أوضاعه ويحقّق صالحه. وبذلك يتوافر فيها الشرط الأول. والنظم السماوية من جهة أخرى ترتبط بالإيمان والعقيدة، فيكون لها في نفوس الأفراد قدسيّة وحرمة وجلال، فيتَّبِعونها عن رغبة ووازع داخلي وابتغاء لمرضاة الله ومحافظة على تقواه وخوفاً من سخطه وعقابه الأخروي وبذلك يتوافر فيها الشرط الثاني أيضاً على أكمل ما يكون.

ومن هنا تظهر الوظيفة الهامّة للدِّين الصحيح في شؤون الاجتماع الإنساني، ويتبيَّن أنه ضرورة لا تستقيم الحياة الاجتماعية بدونها. ومن هنا يظهر لنا كذلك السبب الذي من أجله تختلق بعض المجتمعات لها ديناً حينما لا يكون لها دين سماوي حتى تكتسب نظمها بذلك شيئاً من القوة وتتوافر لها مقومات الاستقرار[1].

أثر العقيدة في تقويم السلوك والرقابة الاجتماعية:

ثم إن هناك تتمة لهذا الجانب الذي تقدَّم آنفاً، نوضِّحه بهذه الفقرة، حيث تُمثِّل الأخلاق جانباً هاماً في الدين، عند محاولة بحث دور الأخلاق في تكوين الشخصية وتقويم السلوك الإنساني، ولذلك أهميته في مجال دراسة أسباب الجريمة ومكافحتها؛ فالدين يشكِّل حجر الزاوية في بناء كافة المناهج الإصلاحية التقويمية التي يخطط له المعنيون بالشؤون التربوية والثقافية والاجتماعية.

وقد اهتم الباحثون في مجال مكافحة الجريمة والوقاية من شرورها بالدور الأساسي الذي يمكن أن يقوم به الدين في ضبط السلوك الاجتماعي الذي يمنع قيام الجريمة.

فالدين يوجِّه الأفراد ويدعوهم إلى التمسك بالأخلاق الحميدة، والسلوك الطيب الخيِّر، وإلى اجتناب الإثم والخطيئة،

---

(١) انظر: «بحوث في الإسلام والاجتماع» د.علي عبدالواحد وافي، ص(٨٨ ـ ٩٠).

تلك هي أنساق أخلاقية مثالية، تتضمنها غالبية التعاليم الدينية المقدّسة، وهذا جميعه يشكل اللبِنات الأساسية لبناء النظام العام القانوني والاجتماعي معاً في المجتمع. ولذلك فإن الجريمة هي خروج الأفراد على القيم الأخلاقية السائدة في المجتمع، وهذه القيم الأخلاقية النابعة من قيم دينية تحرص كل الجماعات على رعايتها وحمايتها ومعاقبة الخارجين عليها، ومن هنا وجدت العلاقة الواضحة بين الجريمة كظاهرة اجتماعية وبين الدين الذي يحكم السلوك الفردي والجماعي.

والجريمة بصفة عامة هي نتيجة أو حصيلة إخفاق بعض المؤسسات الاجتماعية في أداء وظائفها الأساسية عندما يتمّ غرس بذور السلوك القويم في نفوس أفراد المجتمع، والدين هو أبرز المؤثرات في ميدان الضبط أو الرقابة الاجتماعية، ومن هنا ينادي دعاة وأنصار الإصلاح الاجتماعي بطلب المزيد من الوعي بأصول التربية الدينية السديدة، لتكون سداً منيعاً يقف في وجه الجنوح أو الانحراف بوجه عام، وهذا يجعل الدين مرادفاً للأخلاقيات السائدة في المجتمع.

والواقع لا ينفي العلاقة بين الدين والضبط الاجتماعي، فالدين يخدم أهداف التنشئة الاجتماعية السليمة من وجوه متعددة، فالاتجاهات النفسية أو المواقف القوية الراسخة التي يصعب تغييرها أو تبديلها: تمكّن العقيدة الدينية بشكل قوي من تثبيتها وترسيخها وعدم تغييرها أو تبديلها، فالعقيدة الدينية لها أثر قوي عميق في النفس الإنسانية، وهي ذات أبعاد متعددة تتسع لشمول كافة جوانب السلوك الإنساني في مدارج العمر المختلفة،

لذلك فإن بذور الإيمان الديني، وحقائق العقيدة الدينية، وكل ما يتصل بها من تعاليم وشعائر دينية معينة، تنمو في النفس الإنسانية في أولى مراحل الطفل إذا وجدت البيئة الأسرية والمدرسية المناسبة، الأمر الذي يُكسِبها صلابة، ويزيدها قوة ومَنَعة، مما يجعلها تؤثر على كل الاتجاهات النفسية الأخرى.

والدين يهيئ للإنسان الطمأنينة النفسية، ويكسبه قوة لمقاومة القنوط واليأس والخوف والقلق، كما يرسم الدين للإنسان الصورة الكاملة للانتماء النفسي والانتماء الاجتماعي الذي يشكِّل حجر الأساس في تكامل الشخصية والصحة النفسية، والعقلية، فالدين ينمي الثقة بالنفس، والإيمان بقدراتها على تحقيق خير الإنسان وسعادته، كما يقدّم للإنسان الإطار المتين الذي يحرس قيم مجتمعه، ويصون معاييرها الجماعية ويدعّم بعضها، ويكسبها كل أسباب الاحترام والتقدير من قبل الأفراد في المجتمع.

والدين من شأنه تقويم الخلق الشخصي وإكساب الشخصية القوية القوة لمقاومة الإغراءات ومتاهات التجديد، وشرور الأنساق الوافدة التي تسهم اليوم في ضياع شخصية الفرد وفقدان هويته.

وكان للدين في المجتمعات القديمة دور أساسي كامل، يتناول كل جانب من جوانب حياة الفرد، وحياة الشعوب، وإن كان الدين فيما بعد لم يؤدِّ نفس الدور حيث تفكك الروابط الاجتماعية نتيجة لتهافت الأفراد على أسباب الحياة المادية،

بشكل ترك الفرد اليوم بين متاهات الماديات دون رصيد يدعم حياته ويكسبها بعض أسباب الثبات والاستقرار؟

فالإنسان اليوم ـ وخاصة في المجتمعات العلمانية المتطورة المتغيرة ـ لا يجد ما يعصمه عن الوقوع في هاوية الجنوح والانحراف.

والكثير من علماء النفس والاجتماع في أوروبا وأمريكا اليوم يتساءلون من جديد عن دور الدين في بعث التنظيم الاجتماعي الجديد، وهم يؤكدون أن الكثير من الضياع الذي يعاني منه الفرد والجماعة، سببه فقدان ذلك السياج العقائدي الروحي المتين، الذي كان يصون الإنسان، ويدفعه في طريق السلوك الصالح، دون خوف من تهديد سلطة أو ردع عقاب.

إن هذا هو الشعور الداخلي الباطن الذي يحرك الفرد في طريق الخير والصلاح، أساسه الدين الذي كان ولا يزال أقدر على خدمة أغراض التقويم والإصلاح المنشود.

ذلك لأن الدين يتعامل مع الإنسان في أبعاد عميقة من الإيحاء الذاتي، الذي يشكل الإطار الوجداني السليم، والذي قد تتسع له بعض جوانب العلاج النفسي الحديث.

وفي وقتنا المعاصر وجدتْ بعض التطبيقات العلمية المعاصرة طريقها أخيراً في الرجوع إلى الدين كجزء أساسي من عملية معاملة المذنبين والجانحين، وصارت التربية عنصراً أساسياً من عمليات العلاج والتقويم، وخاصة في العلاج النفسي الفردي والعلاج الجماعي، إلى جانب الوسائل العلمية الحديثة التي

يعتمدها علم طب الأمراض العقلية. ورغم قلة الحصيلة الإيجابية لهذا العلاج وكونه في مراحله الأولية من التطبيق، فإن النتائج تبشِّر بنتائج إيجابية أكبر، سيّما وأنها تعمل في حقل معقَّد واسع من حقول الوقاية والعلاج[1].

ارتباط مكافحة الجريمة بالعقيدة والأخلاق:

وهذه العقيدة تمتزج ـ كما تَقَدَّم ـ بالأخلاق، فتهذِّبُ النفس وتُرَبِّي الضمير فتجعل منه محكمة داخلية في نفس المسلم، يُنْصِفُ من نفسه قبل أن ينتصف هو من الآخرين. ولذلك تقوم أحكام القانون الجنائي في الإسلام على هذا الاعتبار الديني، وترتبط مكافحة الجريمة ـ عندئذ ـ بالعقيدة والأخلاق.

وهذه الخاصية أفاضت على الأحكام هيبة واحتراماً في عقول المخاطبين بالتشريع، وأورثتها سلطاناً على النفوس، كان به الفقه الإسلامي شريعة مدنية ووازعاً أخلاقياً في وقت معاً، لما فيه من قدسية المصدر القرآني الآمر، ومن الزاجر الديني الباطن إلى جانب القضاء الظاهر، فلا يحتاج الإنسان إلى قوة مصلتة عليه دائماً لتلزمه الخضوع لإيجابه، ولا يجد في الإفلات من سلطان حكمه غنيمة ـ إن استطاع الإفلات ـ سواء كان عظيماً أو ضعيفاً.

---

(١) انظر: «أسباب الجريمة وطبيعة السلوك الإجرامي»، عدنان الدوري، ص(٣٢٥ ـ ٣٢٩)، و«السلوك الإجرامي والتفسير الإسلامي»، عبدالمجيد سيد منصور، ص(٦٥ ـ ٦٧).

كما تَرَتَّب على هذه الخاصية أيضاً أن يكون لمخالفة الحكم الشرعي جزاء يتحمَّله المخالف، وهو يشمل الثواب عند الطاعة والعقاب أو الضمان عند المخالفة، والجزاء قد يكون دنيوياً يتولاه الحاكم، أي السلطة العامة في الدولة، وقد يكون جزاء أخروياً عند الله تعالى يوم القيامة، ولكن للتوبة أثر في سقوط العقاب عند الله تعالى ولها أثر في سقوط بعض العقوبات في الدنيا[١].

يقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله:

إن ربط القانون الإسلامي بالدين جعله مرتبطاً كلَّ الارتباط بقانون الأخلاق، وبما تطابقت الجماعات الإنسانية قاطبة على أنه فضائل، فلا تنأى فروع هذا القانون ولا قواعده عن الأخلاق الكريمة.

فكانت الشريعة الإسلامية ـ بحق ـ أول قانون تلتقي فيه الشريعة بالأخلاق، ويكونان صِنوَيْن متَّحدين متلاقيين، ومن قبلها كان ذلك حلماً للفلاسفة والمصلحين، يحلمون به، فإن حاولوا تطبيقه، أيقظتهم الحقيقة، وأيأسهم الواقع المستقر.

وإن استمداد الفقه الإسلامي ينابيعه من الدين جعله شاملاً في سلطانه للراعي والرعية، وجعل القانون مسيطراً على الحاكم والمحكوم، فكان من حق الناس أن يقولوا للحكام: أنتم مقيَّدون

(١) انظر: «بدائع الصنائع» للكاساني: ٩/٤٢٩٥ ـ ٤٢٩٦، «الأم» للإمام الشافعي: ٤/١٣٣ ـ ١٣٤، «المغني» لابن قدامة: ١٠/٣٠٨ ـ ٣١١، «العقوبة في الفقه الإسلامي» للشيخ محمد أبو زهرة (٢٤١ ـ ٢٥٥).

بأحكام الشريعة، وأنتم مسؤولون عن تنفيذها. وذلك في أزمان كانت سلطة الحكام مطلقة بلا قيد يقيّدها، ولا نظام يضبطها، فكانت الشريعة بارتباطها بالدين قيداً للحاكم وتهذيباً للمحكوم[1].

أما في القوانين الوضعية فلا نجد لذلك مثيلاً، حقيقة أن كل قانون وضعي جديد يقدَّم له بمذكرة إيضاحية يبين فيها السبب في وضعه والطرق التي سلكها فيه، والغاية منه إلى آخر ما تُعْنَى به أمثال هذه المذكرات لكل تشريع جديد. لكن هذا شيء آخر. إنه بذلك يقنع المخاطب حقاً بأنه يدعى إلى التزام تشريع يحقق العدالة لا العدل فقط، وأن في هذا الالتزام والنزول على هذه التشريعات رضا الله ورضا رسوله وثواباً للإنسان نفسه في هذه الدار الدنيا وفي دار الآخرة، وليس بعد هذا ما يبعث على طاعة القانون[2].

طبيعة المسؤولية وأثرها:

يعرِّف علماء الأخلاق والفلسفة المسؤولية بوجه عام بأنها وضع مَنْ يمكن أن يسأل عن أمرٍ مّا صدر عنه. وأخلاقياً بأنها شعور الإنسان بالتزامه أخلاقياً بنتائج أعماله الإرادية، فيحاسب عليها، إن خيراً وإن شراً.

---

(١) انظر: «الملكية ونظرية العقد» للشيخ محمد أبو زهرة ص(٦). وراجع: «التشريع الجنائي الإسلامي» عبدالقادر عودة ١/٧٠ ـ ٧٤، واقرأ «الدعائم الخلقية للقوانين الشرعية» د. صبحي المحمصاني.

(٢) انظر: «التشريع الإسلامي» د. محمد يوسف موسى، ص(٦٦ ـ ٦٧).

والمسؤولية الأخلاقية هي: أهلية العاقل للجزاء على أفعاله الاختيارية. وهي تفترض القدرة على الاختيار. وعلى ذلك لا تستوجب الأفعال الضرورية أو القهرية أي مسؤولية. وتفترض المسؤولية الأخلاقية العقل والرويّة، فمن فقدهما فلا مسؤولية عليه[1].

وتقدَّم فيما سلف عند الكلام على أصول العقيدة الإسلامية ومعالمها أن أبرز ما يتصف به الإنسان هو التكليف والمسؤولية، وإن أعظم أنواع المسؤولية الدنيوية هو المسؤولية الاجتماعية... وهناك مسؤولية نهائية أمام الله، ولكل منهما أثرها في صلاح البشرية واستقامتها، مما ينتج عنه اختفاء الجريمة ومكافحتها والوقاية منها[2].

وللدكتور محمد عبدالله دراز ـ رحمه الله ـ كلمة في بيان المحكمة التي سنقف أمامها للمسؤولية ونقدِّم فيها الحساب لمعرفة أثر ذلك في التربية والتهذيب والاستقامة، فأمام مَنْ سنقف للسؤال؟ وإلى من سيكون تقديم الحساب؟

يقول رحمه الله: عند الإجابة على هذا السؤال، تختلف المذاهب الإصلاحية، تبعاً لاختلاف نزعاتها الفلسفية، واختلاف

---

(١) انظر: «المعجم الفلسفي» إصدار مجمع اللغة العربية، ص(١٨٢ ـ ١٨٣).

(٢) وانظر أيضاً: «نظام الإسلام» للمبارك، ص(١١٧ ـ ١٢١)، «المسؤولية والجزاء» د.علي عبدالواحد وافي، ص(٧٢ ـ ٧٩)، «قبسات من الرسول» محمد قطب، ص(١٦٧ ـ ١٨٣)، «التصور الإسلامي للكون والحياة» د.عثمان ضميرية، ص(٧٤ ـ ٧٩).

مناهجها في التربية. فالمذاهب ذات النزعة الروحية الصوفية تجعل المسؤولية أمام الله وحده، ولذلك توجّه كل عنايتها إلى تربية الشعور الديني، والمذاهب ذات النزعة الأخلاقية تجعل مسؤولية كل امرئ أمام نفسه، ولذلك تبذل كل جهودها في تربية الضمير الفردي، والمذاهب ذات النزعة الاجتماعية تجعل المسؤولية أمام الأمّة، وتعنى بتربية الشعور الاجتماعي.

فإلى أي شعبة من هذه الشعب الثلاث. يمكننا أن ننسب وجهة النظر الإسلامية، هل هي ذات نزعة دينية خالصة، فتجعل مسؤوليتنا أمام الله، أم نزعة أخلاقية، فتجعل مسؤوليتنا أمام أنفسنا؟ أم نزعة اجتماعية فتجعل مسؤوليتنا أمام الناس؟

إن كل نزعة من هذه النزعات تمثِّل فصيلة خاصة من النفوس، وكل إصلاح من الإصلاحات التي تنبع من النفوس البشرية لا بد أن يأخذ طابعاً خاصاً من نفس صاحبه، أو من نفوس أمّته، أو نفوس أهل عصره، ولا بد أن تتجه وجهة معيّنة من هذه الوجهات الثلاث في اتجاه الكتب الدينية واتجاه الرجال الربانيين، أليس هو الاتجاه الكلي إلى الناحية الروحية الأخروية، ولكن هلمَّ ننظر في القرآن؟ فماذا نرى؟

ها هو ذا يحلِّق بنا في كل أفق.. إنه يعالج النفوس كلها، ويتناول النزعات جميعها فاعتبروا يا أولي الأبصار.

إنه إذاً ليس منبعه، وليس من نفس نفوس الرجال مطلعه، وليس من هذه الطبيعة الأرضية، ولكنه تنزيل رب العالمين، المهيمن على كل النفوس، الخبير بما توسوس به كل الصدور.

ولذلك تجد فيه كل فئة غذاءها ودواءها وشفاءها.

تعالوا نَسْتفتِ القرآن، ونقول له أمام من نحن مسؤولون؟ فنجد أن القرآن يضعنا أمام سلطة ثلاثية كأنه يقول لنا: تصوّروا أنفسكم في نقطة مركزية تحيط بكم ثلاث دوائر مدرَّجة الاتساع، وتصوّروا أنه قد خرج من كل دائرة سهام أو أنصاف أو نار متجهة نحو هذا المركز هي أشعة العين التي تراقبكم.

انظروا في أنفسكم تجدوا محكمة، وانظروا من حولكم تجدوا محكمة، وانظروا فوقكم تجدوا محكمة، محكمة الضمير في قلوبكم، ومحكمة البشر من حولكم، ومحكمة السماء من فوقكم، ولكل واحدة منها أمانة في أعناقكم سنحاسبكم عليها، هل هذه هي نظرية القرآن ـ اقرؤوا إن شئتم قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1].

أساليب التربية الوجدانية وأثرها:

كانت تلك إشارات مجملة كافية لبيان أثر هذه المسؤولية ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحدّ، فإن القرآن الكريم يزيد الأمر بياناً، ويعالج كل واحدة من هذه المسؤوليات المتنوعة ويثبت في نفوسنا الشعور بكل واحدة منها، بمختلف الأساليب. وبالجملة أخذ يربّي فينا الوجدان الخلقي على حدة، والوجدان الاجتماعي على حدة، ويكوّن فينا من مجموعة هذه المشاعر

---

(١) سورة الأنفال، الآية: (٢٧). انظر: «دراسات إسلامية» د. محمد عبدالله دراز، ص(٦٦ ـ ٦٨).

النبيلة نفسية كاملة، ثم يكوِّن من مجموعة الأفراد المهذَّبين أمَّة عظيمة مثالية. وسأسرد هنا نماذج من هذه التربية القرآنية:

١ - تربية الوجدان الخلقي:

فمن أمثلة تربيته للضمير وتهذيبه للشعور الأخلاقي قوله في التنفير من الغيبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[1]. فانظروا كيف أبرز هذه الجريمة في أبشع صورة تتقزز منها النفوس.

وفي النهي عن الكبر والعجب والخيلاء: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾[2].

وفي التحذير من التسرُّع في الحكم على الآخرين قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾[3]. فانظروا كيف حذَّرنا مقدّماً من عمل ما قد يترتّب عليه تأنيب الضمير ووخزه.

وفي التنفير من جريمة الزنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[4].

وفي الحث على غض البصر وطهارة الذيل: ﴿قُل

---

(١) سورة الحجرات، الآية: (١٢).

(٢) سورة الإسراء، الآية: (٣٧).

(٣) سورة الحجرات، الآية: (٦).

(٤) سورة الإسراء، (٣٢).

لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

هذه قطرات من بحر. ففي القرآن أكثر من ألف موضع يدعو فيها إلى الفضيلة لما فيها من طهر وسمو، وينهىٰ فيها عن الرذيلة لما فيها من فحش وسقوط؛ بغض النظر عن كل اعتبار آخر غير الاعتبار الأخلاقي، هذا هو تقدير الأعمال بقيمها الذاتية، وذلك كله إيقاظاً لضمائرنا، وإنارة السبيل أمام أحكامنا الأدبية، حتى إذا قمنا بأي عمل بعد ذلك استطعنا أن نحكم عليه وعلى أنفسنا، فإن جاء طبق هذه الخطوط المرسومة المستقيمة، محقّقاً لهذه المُثُل العليا شعرنا بالرضى والطمأنينة، وقرَّتْ أعيينا بهذا التوفيق ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾[2]. وإن جاء منحرفاً عن هذه الدرجة الرفيعة، شعرنا بالندم وقاسينا الوخز الداخلي والتأنيب القلبي ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾[3] ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾[4].

وفي التحريض على مجازاة السيئة بالحسنة، بل بما هو أحسن الحسنات: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[5].

---

(١) سورة النور، الآية: (٣٠).

(٢) سورة الغاشية، الآيتان: (٨، ٩).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٥٣).

(٤) سورة القيامة، الآيتان: (١، ٢).

(٥) سورة فصلت، الآية: (٣٤).

٢ ـ تربية الوجدان الاجتماعي، والشعور بالمسؤولية أمام الناس:

في الأمثلة السابقة رأينا القرآن يزوّد محكمة الضمير بالمصابيح التي تُبْرِز أمامها كلَّ عمل من أعمالنا وتصوِّر ما في طبيعته من حسن وجمال، أو تشويه ودمامة أو خير أو شرّ، ثم رأيناه يعرض علينا عمل هذه المحكمة في تحضير قضاياها وفي إصدار أحكامها.

فلننظر إليه الآن وهو يوقظ شعورنا بوجود محكمة أخرى خارج النفس هي محكمة المجتمع الذي يراقب أعمالنا ويُصدر عليها أحكامه، أحكاماً مادية تارة، وأدبية تارة أخرى، ويحذّرنا من الوقوع تحت طائلة هذه الأحكام.

أظنُّكم لستم في حاجة إلى التعريف بالمحكمة التي تصدر النوع الأول من الأحكام، أعني الأحكام المادية، تلك هي المحكمة الرسمية، وهي محكمة الدولة، التي خوَّلها القرآن توقيع أنواع العقوبات والتأديبات على كل من ينتهك حرمة القانون، ولكن ذكرت لكم أن الإسلام يعترف بوجود محكمة أخرى في المجتمع، ليست مركزية ولا رسمية. هي محكمة الرأي العام التي قال فيها: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

فهذه هي التي تصدر الأحكام الأدبية التي يرفع الله بها أناساً ويخفض بها آخرين. فإذا مدحت أحداً بحق، أو ذممت أحداً بحق، كان حكمها من حكم الله، كما جاء في الحديث الصحيح: «**إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال يا**

جبريل إني أُحبّ فلاناً فأحبّه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء فيقول إن الله تعالى أحب فلاناً فأحبّوه فيحبّه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض.. وإذا أبغض عبداً...» الحديث[1].

هذه المحكمة يحذّرنا القرآن من أن تصدر ضدنا أحكامها العادلة. فيقول: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾[2] فليس علينا أن نخشى اللوم الجائر، ولكن علينا أن نكون دائماً مع الحق والعدل، وأن نكون منطقيين مع عقائدنا وأقوالنا، فنفعل ما نقول، ولا نقول ما لا نفعل، حتى لا نُعرِّض أنفسنا لنقد الناقدين بالحق، ولذلك جاء في دعوات سيدنا إبراهيم عليه السلام التي قصَّها علينا القرآن: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾[3]. فلسان الصدق معناه طيب الذكر. والثناء من الصالحين الذين هم شهداء الله في الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[4].

وكأني ببعضكم يعترض قائلاً: إذا كنت بريئاً في الواقع؛ وبريئاً أمام الله وأمام ضميري، فلا أبالي رَضِيَ الناس أم سخطوا، ثبتت عندهم براءتي، أم كنت عندهم متَّهماً. هذا كلام صحيح ليس على إطلاقه، إنما هو لمن عجز عن إثبات براءته

---

(١) أخرجه البخاري: ٦/٣٠٣، ومسلم: ٤/٢٠٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٥١).

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: (٨٣ ـ ٨٤).

(٤) سورة البقرة، الآية: (١٤٣).

عند الناس، فلا شك أنه مضطر أن يكتفي ببراءته عند الله، ولكن من قدر على أن يكون ناصع الصفحة في الواقع وفي نظر الرأي العام وجب عليه أن يعمل على ذلك، ولا ينبغي له أن يضع نفسه في مواضع التهم مكتفياً بما عند الله من براءته. وإليكم شواهد ذلك من كتاب الله وسنة رسول الله.

لقد حدث ذات مرة أن النبي ﷺ كان معتكفاً في المسجد ليلاً، وجاءت إحدى زوجاته بشيء من متاع ثم انصرفت فقام يودعها، فلما وصل إلى باب المسجد إذا رجلان قادمان إلى المسجد فلمّا رأيا النبي استحيا منه وولّيا مدبرين، فلم يتركهما النبي ﷺ يذهبان بل استوقفهما قائلاً: على رسلكما، هذه فلانة بنت فلان، يعني زوجته؛ فقال الرجلان: سبحان الله أو فيك يا رسول الله أن نشك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً**»[1] فانظروا إلى الطهر المجسّم، والعصمة الكاملة كيف لم تكتف بما وَقَر في قلوب الناس من الإيمان بها، بل أرادت أن تمحو ظل كل شبهة ووهم، وكل خاطر مريب عن نفسها. فكذلك يجب علينا نحن أن نحسب حساباً لمحكمة الرأي العام، ونحن أحقُّ ألف مرة بألّا ندع الظنون والرِّيب تحوم حولنا ولو كنا أبرياء.

وهل أتاكم نبأ يوسف عليه السلام الذي قصّه علينا القرآن، وكان من أمره أنه بعد أن لبث في السجن بضع سنين وعرض

---

(١) أخرجه البخاري: ٢٨١/٤، ومسلم: ١٧١٢/٤.

عليه رؤيا الملك ففسّرها تفسيراً سرَّ الملك وأعجبه فأرسل إليه رسولاً يدعوه إليه لينتفع بعلمه، أتدرون ماذا فعل يوسف في جواب هذه الدعوة؟ لقد رفض أن يخرج من السجن قبل أن يثبت التحقيق براءته من التهمة الكاذبة التي نسبت إليه، وكان جوابه لرسول الملك أن قال له: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

وكان أن استدعى الملك عصابة النسوة اللاتي كنّ شهدن الحفل الملكي فقال لهن: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾[1]. فهنالك بعد أن ثبتت براءته باعتراف الخصوم أنفسهم، وأصبح نقي السمعة أمام الرأي العام، رضي أن يخرج من السجن وأن يتولى المراكز السامية التي عرضت عليه من مناصب الدولة.

إن في ذلك لعبرة لكل ذي خلق نبيل.

تربية الشعور الديني:

هذه كلها أحكام إنسانية نصدرها نحن على أنفسنا، أو تصدرها الجماعة على أعمالنا. وها قد رأينا عناية القرآن، بتنبيهنا إلى قيمة هذه الأحكام وكأنها تأمرنا بالتعرض لنفحاتها الطيبة، وتنهانا عن التعرض للنفحات القاسية ـ محكمة الضمير محكمة باطنية. ومحكمة المجتمع محكمة سطحية ظاهرية لا تتناول من

---

(١) سورة يوسف، الآية: (٥١).

أعمالنا إلا ما يقع تحت السمع والبصر، ولا تتناول من هذه الأعمال إلا ما يصل إلى علمها. فهل هناك محكمة تحيط بظواهرنا وبواطننا، ولا يخفى عليها شيء من أمرنا، وإن بعدنا عن أعين الرقباء؟ نعم تلك هي المحكمة الإلهية العليا[1].

من الواقع التاريخي: سلطة الإيمان:

من الأمثلة الرائعة التي تدل على أن الإيمان وتربية الشعور الديني هو الضابط الذي يعصمنا من الجريمة ومن ارتكاب الحرام ومن مخالفة الأوامر حتى ولو لم يكن هناك أي رقابة خارجية، ولو لم يكن هناك أي سلطة ظاهرية، من الأمثلة على ذلك: تحريم الخمر في الإسلام بمجرد نزول الأمر القاطع في ذلك، بينما فشلت أكبر النظم المعاصرة في ذلك؛ لأنها لا تقوم على إيمان، أو لا تنظر إلى حلال وحرام فيما تشرّعه من قوانين، فلننظر في ذلك لنرى فارق ما بين النظامين الإيماني والجاهلي أو العلماني، وندع الأستاذ سيد قطب رحمه الله يرسم لنا صورة للنظامين أو المنهجين في ذلك، حيث يقول: لقد كانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي الأصيلة الشاملة؛ وإحدى الظواهر المميزة لهذا المجتمع، كما أنها تكاد تكون ظاهرة مميزة لكل جاهلية في القديم والحديث أيضاً.

الخمر كانت ظاهرة مميزة للمجتمع الروماني في أوج جاهليته؛ وللمجتمع الفارسي أيضاً. وكذلك هي اليوم ظاهرة

---

(١) انظر: «دراسات إسلامية» د. محمد عبدالله دراز ص(٧٣ ـ ٧٨).

مميزة للمجتمع الأوروبي والمجتمع الأمريكي في أوج جاهليته! والشأن أيضاً كذلك في جاهلية المجتمع الإفريقي المتخلفة من الجاهلية الأولى!

في السويد ـ وهي أرقى أو من أرقى أمم الجاهلية الحديثة ـ كانت كل عائلة في النصف الأول من القرن الماضي تُعِدُّ الخمر الخاصة بها. وكان متوسط ما يستهلكه الفرد، حوالي عشرين لتراً. وأحست الحكومة خطورة هذه الحال، وما ينشره من إدمان؛ فاتجهت إلى سياسة احتكار الخمور، وتحديد الاستهلاك الفردي، ومنع شرب الخمور في المحالِّ العامة.. ولكنها عادت فخفّفت هذه القيود منذ أعوام! فأبيح شرب الخمر في المطاعم بشرط تناول الطعام. ثم أبيحت الخمر في عدد محدود من المحال العامة، حتى منتصف الليل فقط! وبعد ذلك يباح شرب «النبيذ أو البيرة» فحسب! وإدمان الخمر عند المراهقين يتضاعف...!

أما في أمريكا، فقد حاولت الحكومة الأمريكية مرّة القضاء على هذه الظاهرة فسنَّت قانوناً في سنة **١٩١٩** سمّي قانون «الجفاف»! من باب التهكم عليه، لأنه يمنع «الري» بالخمر! وقد ظل هذا القانون قائماً مدة أربعة عشر عاماً، حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه سنة **١٩٣٣** .وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر والإذاعة والسينما والمحاضرات للدعاية ضد الخمر. ويقدِّرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليوناً من الدولارات، وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على عشرة بلايين صفحة، وما تحملته في

سبيل تنفيذ قانون التحريم في مُدَّة أربعة عشرة عاماً لا يقلّ عن ٢٥٠ مليون جنيه. وقد أُعدم فيها ٣٠٠ نفس؛ وسجن كذلك ٥٣٣، ٢٣٥ نفساً. وبلغت الغرامات ١٦ مليون جنيه. وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة بلايين جنيه.. وبعد ذلك كله اضطرت إلى التراجع وإلغاء القانون[1].

فأما الإسلام فقضى على هذه الظاهرة العميقة في المجتمع الجاهلي.. ببضع آيات من القرآن. وهذا هو الفرق في علاج النفس البشرية، وفي علاج المجتمع الإنساني.. بين منهج الله ومناهج الجاهلية قديماً وحديثاً على السواء!

فماذا صنع المنهج الرباني لمقاومة هذه الظاهرة المتغلغلة؟ ماذا صنع لمكافحة هذه الآفة، التي لا يقوم معها مجتمع جادّ صالح مستقيم واعٍ أبداً؟ ماذا صنع ليقف في وجه عادة أصليةً قديمة، تتعلق بها تقاليد اجتماعية؛ كما تتعلق بها مصالح اقتصادية؟

لقد عالج النهج الرباني هذا كله ببضع آيات من القرآن؛ وعلى مراحل، وفي رفق وتؤدة، وكسب المعركة. كانت الخَمرة في أفواه الشاربين ـ حين سمعوا آية التحريم ـ فمجُّوها من أفواههم ـ ولم يبلعوها. كما سيجيء!

في مكة ـ حيث لم يكن للإسلام دولة ولا سلطان.. إلا

---

(١) عن كتاب «تنقيحات» للسيد أبي الأعلى المودودي. نقلاً عن كتاب: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للسيد أبي الحسن الندوي ص(٩٣).

سلطان القرآن - وردت في القرآن المكي تلميحة سريعة إلى نظرة الإسلام للخمر، تدرك من ثنايا العبارة. وهي مجرد إشارة.

وفي المدينة حيث قامت للإسلام دولة وكان له سلطان.. لم يلجأ إلى تحريم الخمر بقوة الدولة وسيف السلطان، إنما كان أولاً سلطان القرآن..

وبدأ المنهج عمله في رفق وفي يسر، وفي خبرة بالنفس البشرية، والأوضاع الاجتماعية... بدأ بآية رداً على أسئلة تدل على فجر اليقظة في الضمير المسلم ضد الخمر والميسر: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ..﴾.

ثم حدثت أحداث ونزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾..

وأخذ المنهج البصير الرفيق يعمل...

لقد كانت هذه هي المرحلة الوسيطة بين التنفير من الخمر، لأن إثمها أكبر من نفعها، وبين التحريم الباتّ، لأنها رجس من عمل الشيطان. وكانت وظيفة هذه المرحلة الوسيطة: هي «قطع عادة الشراب» أو «كسر الإدمان».. وذلك بحظر الشراب قرب أوقات الصلاة، وأوقات الصلاة موزعة على مدار النهار وبينها فترات لا تكفي للشراب - الذي يرضي المدمنين - ثم الإفاقة من السكر الغليظ! حتى يعلموا ما يقولون! فضلاً على أن للشراب كذلك أوقاتاً ومواعيد خاصة من الصبوح والغبوق.. صباحاً ومساءً.. وهذه تتخللها وتعقبها أوقات الصلاة.. وهنا

يقف ضمير المسلم بين أداء الصلاة وبين لذة الشراب.. وكان هذا الضمير قد بلغ أن تكون الصلاة عماد الحياة..

ومع ذلك.. فقد قال عمر ﷺ ـ وهو عمر!!! ـ: «اللهم بيِّن لنا بياناً شافياً في الخمر».. ثم مضى الزمن ووقعت الأحداث. وجاء الوعد المناسب ـ وفق ترتيب المنهج ـ للضربة الحاسمة. فنزلت الآيتان في المائدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[1]؟..

وانتهى المسلمون كافة. وأريقت زِقاق الخمر، وكسرت دنانها في كل مكان.. بمجرد سماع الأمر.. ومجَّ الذين كان في أفواههم جرعات من الخمر ما في أفواههم ـ حين سمعوا ولم يبلعوها وهي في أفواههم؛ وهم شاربون..

لقد انتصر القرآن، وأفلح المنهج، وفرض سلطانه ـ دون أن يستخدم السلطان!!! ولكن كيف كان هذا؟ كيف تمت هذه المعجزة، التي لا نظير لها في تاريخ البشر؛ ولا مثيل لها في تاريخ التشريعات والقوانين والإجراءات الحكومية في أي مكان، ولا في أي زمان؟

لقد تمت المعجزة، لأن المنهج الرباني، أخذ النفس الإنسانية، بطريقته الخاصة.. أخذها بسلطان الله وخشيته

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: (٩٠، ٩١).

ومراقبته، وبحضور الله ـ سبحانه ـ فيها حضوراً لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان.. أخذها جملة لا تفاريق.. وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة[١].

والأمثلة على سلطة الإيمان، ومراقبة الله تعالى وخشيته في السرّ والعلن، والامتثال للأمر والحكم، والابتعاد عن الجريمة أياً كانت، ومجانبة الغش في المعاملات... الأمثلة على ذلك كثيرة تعزُّ على الحصر. ونشير إلى مثالٍ ثان ـ مع ما سبق ـ يرويه لنا «أَسْلَم» مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال:

بينما أنا مع عمر بن الخطاب، وهو يَعُسُّ بالمدينة (يطوف بها ليلاً) إذ أعييَ، فاتَّكأ على جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأةٌ تقول لابنتها: يا بنتاه، قومي إلى ذلك اللبن فَامْذُقِيه بالماء. فقالت لها: يا أمّتاه، أوَ ما علمتِ بما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟

فقالت: وما كان من عزمته يا بُنَيَّة؟ قالت: إنه أمر مناديه فنادى أن لا يُشاب اللبن بالماء. فقالت لها: يا بنتاه قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء، فإنك بموضعٍ لا يراك عمر ولا منادي عمر.

فقالت الصبيَّة لأمها: يا أمتاه، والله ما كنت لأُطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء[٢]!

---

(١) انظر: «في ظلال القرآن» لسيد قطب ص (٦٦٣ ـ ٦٦٦).

(٢) انظر: «سيرة عمر بن الخطاب» ص(٦٠)، «سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز» ص(١٠) كلاهما لأبي الفرج ابن الجوزي.

وهكذا يقف الإيمان حارساً لسلوك صاحبه، ودافعاً للاستقامة، ووازعاً عن الجريمة والحرام؛ فإذا كان عمر لا يرى من يخالف أمره فإن ربَّ عمر يراه ويحاسبه، فعلامَ تكون الطاعة في الملأ والعَلَن، والمعصية والمخالفة في السرِّ والخفاء، والله سبحانه وتعالى يعلم السرَّ وأخفىٰ!

أثر الإيمان في الاعتراف والإثبات:

وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملي على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة إرادة وقوة نفس ومحاسبتها والإنصاف منها، وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلاّت الخلقية والسقطات البشرية، حتى إذا جمحت السَّوْرة البهيمية في حين من الأحيان وسقط الإنسان سقطة، وكان ذلك حيث لا تراه عين ولا تتناوله يد القانون: تحول هذا الإيمان نفساً لوَّامة عنيفة ووخزاً لاذعاً للضمير وخيالاً مروعاً، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون، ويعرِّض نفسه للعقوبة الشديدة ويتحملها مطمئناً مرتاحاً، تفادياً من سخط الله وعقوبة الآخرة.

وقد حدثنا المؤرّخون الثقات في ذلك بطرائف لم يحدث نظيرها إلا في التاريخ الإسلامي الديني[1]. فمنها ما روى الإمام مسلم صاحب «الصحيح» بسنده عن عبدالله بن بريدة عن أبيه أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله

---

(١) انظر: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ص (١٠٣ ـ ١٠٤).

إني ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهِّرني، فردَّه. فلما كان من الغد أتاه فقال يا رسول الله إني قد زنيت فردَّه الثانية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال: أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً؟ فقالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة، فأرسل إليهم أيضاً فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرُجم.

قال فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله إني قد زنيت فطهِّرني وأنه ردَّها فلما كان الغد قالت: يا رسول الله لِمَ تَرُدُّني؟ لعلك أن تردَّني كما رددت ماعزاً، فوالله إني لحبلى. قال: إما لا فاذهبي حتى تلدي. قال: فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة قالت: هذا قد ولدته. قال: فاذهبي فأرضعيه حتى تطعميه. فلما فطمته أتته بالصبي، في يده كسرة خبز، فقالت؛ هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام. فدفع الصبيَّ إلى رجل من المسلمين. ثم أمر فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها. فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبَّها، فسمع نبي الله سبَّه إياها فقال: «**مهلًا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مَكْس لَغُفِرَ له**» ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت[1].

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «إن الشريعة الإسلامية تتصل قوانينها بقانون السلوك الإنساني العام، فأحكامها تتفق مع قانون الأخلاق، والفضيلة، وهي تعاقب على ما يرتكب من الرذائل، بيد

---

(١) انظر: «صحيح مسلم»، كتاب الحدود: ٣/ ١٣٢٣ ـ ١٣٢٤.

أن عقابها قسمان: عقاب دنيوي، وعقاب آخروي، فما يمكن أن يجري عليه الإثبات من الأعمال الظاهرة من غير تجسس، ولا تكشف للأسرار المستورة بستر الله سبحانه وتعالى يعاقب عليه الشرع في الدنيا، وما لا يمكن أن تجري فيه البينات، وليس ظاهراً مكشوفاً؛ ولا بيّنا معروفاً، يكون العقاب عليه أمام الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، فمرتكب الخطيئة مأخوذ بما ارتكب لا محالة؛ إن أدركه الإثبات أُخذ من نواصيه أمام القضاء في الدنيا وحوكم على ما ارتكب ثم أمره إلى الله يوم القيامة، وإن لم يؤخذ بجريمته في الدنيا؛ إما لأنها غير قابلة للإثبات، أو لأن المجرم استطاع النجاة من العقاب. ولم يكن ثمَّة إثبات فيما يمكن فيه الإثبات. فإن العقاب لاحقٌ به في الآخرة بلا ريب.

ومن هذا الجانب اتصلت الشريعة بالضمير الإنساني. وكانت أحكامها متجاوبة مع الوجدان القوي. وإن اتصال الحكم الدنيوي بالضمير الديني يجعل المؤمن يحس بأنه في رقابة مستمرة، وأنه إن خفي عن أعين الناس لا يخفى على الله من عمله خافية، وأنه سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وإن اتصال القوانين بالضمير له مزايا جليلة، فهو يجعل الأفراد في وقاية نفسية من الجرائم، فيمنع وقوع الجريمة، لخشيته من الله سبحانه وتعالى، ولإحساسه أن الله مطّلع على ما يفعل، وأن عليه أن يخشى الله تعالى أكثر من الناس، وأن الضمير الديني يجعل المسلم مطمئناً راضياً بقضاء الله وقدره، يستقبل الأمور برضا واطمئنان، وإن لم يكن فيها كل ما يشتهي ويهوى، وبذلك لا يكون منه حقد على أحد، وإن الذين

يرتكبون الجرائم ثم يقعون غالباً بسبب حقدهم على غيرهم من المجتمع، فيندفعون في إيذاء الناس، وقد سمّى العرب في القديم الطائفة التي تخرج على الجماعة وتتولى قطع الطريق، والسرقة والنهب ـ بالشذّاب، وتلك تسمية حكيمة فيها إشارة إلى معنى انقطاع تلك الطائفة الآثمة عن الناس ومشاعرهم.

وأنه إذا تربى الضمير الديني قويت الأُلفة، وذهب الحقد الذي يدفع إلى الإجرام، وذهب الحسد فلا يحسد أحدٌ الناسَ على ما آتاهم من فضله، لأنه يعلم أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأن الصابرين لهم جزاؤهم، وأن هناك يوماً يؤتى فيه الصابرون أجرهم بغير حساب، وفي ذلك عزاء روحي يقتلع من النفس كل جراثيم الاعتداء.

وإذا لم يمنع الضميرُ الجرِيمةَ من الوقوع بأن لم تكن فيه قوة المنع، فإنه يسهّل الإثبات، وإذا كانت الجرائم لا تقع إلا في كِنٍّ من الظلام مستترة غير ظاهرة، فإن الضمير الديني قد يدفع إلى الاعتراف، وانظر إلى تلك القصة التي رويت عن علي رضي الله عنه، فإنه روي أن رجلاً وُجِد في خربة وبيده سكين متلطخة بالدم وبين يديه قتيل يتشحَّط في دمه. فسأله علي فقال: أنا قتلته. فقال علي: اذهبوا به فاقتلوه، فلما ذهب به جاء رجل مسرعاً. فقال يا قوم: لا تعجلوا به ردوه إلى عليّ، فردّوه. فقال: يا أمير المؤمنين ما هذا صاحبه، أنا قتلته. فقال عليٌّ للأول: ما حملك على أن قلت أنا قتلته. ولَمْ تقتُله؟ قال: يا أمير المؤمنين. وما أستطيع أن أفعل وقد وقف العَسَسُ على الرجل يتشحط في دمه، وأنا واقف، وفي يدي سكين، وفيها

أثر الدم، وقد أُخِذْت في خربة، فخفت ألا يقبل مني فاعترفت بما لم أصنع واحتسبت نفسي عند الله. فقال: بئسما صنعت، فكيف كان حديثك؟ قال إني رجل قصَّاب خرجت إلى حانوتي في الغلس، فذبحت بقرة وسلختها، فبينما أنا أسلخها والسكين في يدي أخذني البول. فأتيت خربة كانت، فدخلتها، فقضيت حاجتي وعدت أريد حانوتي، فإذا أنا بهذا المقتول يتشحط في دمه، فراعني أمره فوقفت أنظر والسكين في يدي، فلم أشعر إلا بأصحابك قد وقفوا عليَّ فأخذوني، فقال الناس: هذا قتل هذا، ما له قاتل سواه، فأيقنت أنك لا تترك قولهم لقولي فاعترفت بما لم أجْنِه.

فقال عليٌّ للمتَّهم الثاني: فأنت كيف كانت قصتك؟ فقال أغواني إبليس. فقتلت الرجل طمعاً في ماله، ثم سمعت حس العَسَسِ، فخرجت من الخربة، واستقبلت هذا القصاب على الحال التي وصف، فاستترت منه ببعض الخربة، حتى أتى العسس فأخذوه، وأتوك به، فأمرتَ بقتله وعلمتُ أني سأبوء بدمه أيضاً، فاعترفت بالحق.

فقال أمير المؤمنين عليٌّ لابنه الحسن: ما الحكم في هذا؟

قال يا أمير المؤمنين: إن كان قد قتل نفساً فقد أحيا نفساً، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1]. فخلَّى علي عنهما ودفع دية المقتول من بيت المال[2].

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٣٢).

(٢) انظر: «الطرق الحكمية»، لابن القيم ص(٥٦ ـ ٥٧).

ولقد بلغت قوة الضمير الذي يسهل إثبات الجريمة أن الرجل كان يأخذ ولده ليقيم عليه الحد إذا قام سببه. فقد روى البخاري ومسلم أن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ. فقال أحدهما: اقضِ بيننا يا رسول الله بكتاب الله. فقال صاحبه: نعم يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله وأذَنْ لي، فقال الرسول عليه السلام قل: فقال: إن ابني كان عسيفاً في أهل هذا ـ أي أجيراً ـ فزنى بامرأته فافتديت بمائة شاة، وإن رجالاً أخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، فقال عليه الصلاة والسلام: **«والذي نفسي بيده لأقضينَّ بينكما بكتاب الله: المائة والخادم ردٌّ عليك وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام»**[1].

ذلك سلطان الضمير، يجعل القاتل يُقدِّم رقبته، والأب يقدِّم فلذة كبده، وما ذاك إلا أن الأثيم يحسُّ بسلطان الله سبحانه وتعالى، لأن القانون الذي يطبق هو قانونه، وهو أمره ونهيه. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[2].

حب التقوى وبغض المآثم وأثرهما:

من مقتضيات العقيدة والإيمان: أن يحبَّ المؤمن ربَّه، وأن يحبَّ دينه، وأن يحبَّ نبيه ﷺ، بل إن الإيمان لا يتم إلا

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان: ١١/٥٢٣، ومسلم في كتاب الحدود: ٣/١٣٢٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٣٦). انظر: «كتاب العقوبة» للشيخ محمد أبو زهرة ص(١٨ ـ ٢١).

بذلك، فالمحبة هذه شرط من شروط كلمة التوحيد حتى تنفع صاحبها. وإن من علامة حب العبد ربَّه ـ تبارك وتعالى ـ أن يقدم كلَّ ما يحبه الله وإن خالف ذلك هوى النفس.

فالحُبُّ يحمل المؤمن حملاً على التزام الحدود الشرعية التي فرضها الله تعالى على العباد، ومراعاة الحقوق التي فصَّلها بينهم، لأن في انتهاكها مجلبةً لغضب الربِّ وسبباً للبعد عن جنابه والحرمان من الأنس بقربه.

وكذلك شكر الله تعالى على نعمه وآلائه، يدعو إلى وقوف المؤمن عند حدود الله واستغلال القدرات التي أسبغها الله تعالى في وجوه الهداية والخير، لأن أبشع كفران للنعمة هو أن يضعها المرء في غير ما وضعت له، واستغلالها في معصية الخالق الرازق، وتسخيرها للفسق والإجرام: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾(١).

فالحب والشكر داعيان قويَّان للتحري عن حكم الله في كل حال ليظهر وجه التقرب فيهما من الله وابتغاء مرضاته والنفور من سخطه، فإذا فقه المؤمن التزم حدود الله حيثما كان، يضبط قدراته لديها، فيَكُفّ اللسان، ويغُض البصر، ويُمسك اليد عن محارم الله، ويوجِّه إمكاناته وفقاً لها، منفقاً ماله وسلطته في طاعة الله.

ومن أجل هذا يُرَغِّب القرآن الكريم في مخالقة الناس

---

(١) سورة القصص، الآية: (١٧).

بخلق حسن، ترغيباً وترهيباً: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[1]. ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾[2].

وهكذا يكون للحب والشكر أثرهما في ضبط سلوك المؤمن، وكَفِّه عن عمل الشر وعصمته عن العدوان على حقوق العباد[3].

آثار الإيمان بالله في الوقاية من الجريمة:

إن الإيمان بالله تعالى ووحدانيته في الربوبية والألوهية أعظم أركان الإيمان، وله الأثر الأول في إيقاظ الرقابة الداخلية عند الإنسان ـ كما تقدم ـ فالله تعالى هو الذي خلق الخلق وهو أعلم بهم، فالله عليم خبير، والإفلات من عقوبة الدنيا على مخالفة أمره، والتستر والمخاتلة لا يغني شيئاً عن عقوبة الحياة الآخرة. وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم من آيات علمه البينات ما يجعل ضمير المؤمن حياً يرعى حرمات الله في السرِّ والعلانية، فالله هو الذي بدأ خلق الإنسان من طين، وجعل نَسْله من سلالة من ماء مهين، يعلم مستقر البدء والنسل ويحيط بما لديه من تقوى أو جحود: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ

(١) سورة البقرة، الآية: (١٩٠).

(٢) سورة النساء، الآية: (١٤٨).

(٣) انظر: «مدخل لدراسة العقيدة» د.عثمان ضميرية ص(٢٧٠)، «الإيمان وأثره في حياة الإنسان» د.حسن الترابي ص(١٥٠ ـ ١٥٢).

ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾[1].

ولا يتأتى للخالق أن يجهل دقائق خلقه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[2].

يستوي في علمه الإسرار والإعلان: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾[3].

ولن يكون بمنجاة عن علمه هؤلاء الذين يتناجون سرّاً بمنأى عن الناس جميعاً:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾[4].

ووسوسة النفس المترددة في الجوانح تحت إحاطته القريبة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾[5].

وأفعال العبد محصاة عليه سطّر صغيرها وكبيرها في سجله: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾[6].

---

(١) سورة النجم، الآية: (٣٢).

(٢) سورة الملك، الآية: (١٤).

(٣) سورة التغابن، الآية: (٤).

(٤) سورة المجادلة، الآية: (٧).

(٥) سورة ق، الآية: (١٦).

(٦) سورة القمر، الآيتان: (٥٢ ـ ٥٣).

ومن أوصاف المتقين أنهم ينيبون إلى الله ويخشونه بالغيب: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣)﴾[1].

وتصل الرقابة الإلهية ذروتها في ضمير المسلم عندما يرى نفسه مبعثراً في يوم النشور وقد جُمِعَتْ سريرته: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)﴾[2].

ولهذا قرن الله في أحكام الشريعة الإسلامية الجزاءَ الأخروي بالجزاء الدنيوي، فإن أفلت المرء من جزاء الدنيا لم يفلت من جزاء الآخرة.

يقول الله تعالى في القتل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)﴾[3].

ويقول في المحاربة: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤)﴾[4].

ويقول في السرقة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً

---

(١) سورة ق، الآية: (٣٣).

(٢) سورة العاديات، الآيات: (٩ ـ ١١).

(٣) سورة النساء، الآية: (٩٣).

(٤) سورة المائدة، الآيتان: (٣٣، ٣٤).

بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[1].

ويقول في الرِّبا: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾[2].

ويقول في التولِّي عن الزحف: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾[3].

وإذا كانت المناهج البشرية قد صنفت في قوانينها الجرم فإن خبث الطويَّة لا يعدم صاحبه الحيلة التي يمرق بها من حجاب القانون ويهتك حرماته. تحت أجنحة الليل تستتر الجريمة وفي غفلة من حراسة الحق تعبث الأيدي الآثمة ولن يجدي القانون أمام هذا الدبيب الخفي[4].

أثر الإيمان بالأسماء والصفات:

الإيمان بأسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العُلَى، يمثل حقيقة الإيمان بالله، نتعرف من خلالها على الله تعالى معرفة

(١) سورة المائدة، الآيتان: (٣٨، ٣٩).
(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٧٥).
(٣) سورة الأنفال، الآية: (١٦).
(٤) انظر: «الندوة العلمية لدراسة تطبيق التشريع الجنائي الإسلامي» ص(١٥٧ـ١٥٨).

صحيحة صادقة، ويكون لها أثرها العالي في سلوك الإنسان وحياته، فعندما نقرأ الآيات الكريمة ونتدبَّر معانيها، يمتلئ قلبنا خشية من الله وتطلعاً إلى ما عنده من النعيم والرضوان وعندما نؤمن بأن الله تعالى هو «التواب الرحيم» وأنه «غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب» فإننا نتطلع إلى التوبة والرحمة ونحاذر شدة العقوبة التي تكون على الذنب... وعندما نؤمن بأن الله تعالى هو «الرزاق ذو القوة المتين» فإننا نتطلع إلى ما عنده من رزق وما قسمه لنا، فلا نتخذ لذلك إلا طريقاً سائغاً مشروعاً فلا نلجأ إلى سرقة أو غصب.. وعندما نؤمن بأن الله تعالى هو السميع البصير العليم، عالم الغيب والشهادة، عندئذ نتحرّز من أي عمل من الأعمال ونحاذر الجريمة والحرام، لأن الله تعالى يرانا ويراقبنا، ويعلم خلجات شعورنا.. ويكون سلوكنا كله أثراً من آثارها.

وهكذا في كل صفات الله تعالى وأسمائه، يكون الإيمان بها له أثره في السلوك الفردي الاجتماعي، عندما نؤمن بها كما وردت في كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، وعندما نفهمها كما فهمها السلف من هذه الأمّة التي جعلها الله خير أمّة أخرجت للناس[1].

وفي بيان ما يترتب على الإيمان بالأسماء والصفات من

---

(١) انظر: «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» للغزالي، ففيه مباحث نفيسة لها صلة بهذا، وراجع «مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية» د.عثمان ضميرية، ص(٢٤٦).

الخير ومن المصالح الدنيوية والأخروية، يشير الإمام العز بن عبدالسلام إلى أثر ذلك في استقامة السلوك واجتناب المعاصي والجرائم فيقول:

إن الخير كلّه في الطاعات، والشرّ كلّه في المخالفات. ولذلك جاء القرآن الكريم بالحث على الطاعات والزجر عن المخالفات، وكان من طريقة القرآن في ذلك أن تقترن الآيات بالصفات؛ مثل أن يَذْكُرَ سعة رحمته - سبحانه - ليرجوه فيعملوا بالطاعات، ويذكر شدّةَ نِقْمته، ليخافوه فيجتنبوا المخالفات، ويذكر نَظَره إليهم ليسْتَحْيُوا من اطّلاعه عليهم فلا يعصوه، ويذكُرَ تفرُّده بالضرّ والنفع، ليتوكلوا عليه ويفوِّضوا إليه...

وكذلك يذكرُ أوصاف كماله، ليعظِّموه ويهابوه، ويذكرُ سَمْعَه ليحفظوا ألسنتهم من مخالفته، ويذكر بَصَرَه ليستحيوا من مراقبته، ويجمع بين ذِكْر رحمته وعقوبته، ليكونوا بين الخوف والرجاء؛ فإن السطوة لو أُفردتْ بالذِّكْر لخِيْفَ من أدائها إلى القنوط من رحمته، ولو أُفردت الرحمةُ بالذِّكْر، لخيف من إفضائها إلى الغرور بإحسانه وكرامته[1]. ومَثَلُه قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾[2].

وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ

---

(١) بتصرف عن: «القواعد الكبرى» للعز بن عبدالسلام: ٢٧/١ تحقيق د. نزيه حماد، وعثمان ضميرية، دار القلم، بدمشق.

(٢) سورة الحجر، الآيتان: (٤٩، ٥٠).

لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٦﴾﴾[1].

وقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾﴾[2].

آثار أخرى لسائر الأركان:

إن سائر أركان الإيمان التي تحدثنا عنها فيما سبق، لها أثرها في الوقاية من الجريمة والوقوع فيها. فالإيمان بالملائكة الذين يكتبون أعمال الإنسان له أثره في استقامة السلوك حتى لا تكتب على المؤمن إلا ما هو خير، فيبتعد بذلك عن الشر والجريمة، والإيمان بالملائكة الموكلين بالجنة والنار يُشْعِر المؤمنَ بالعمل بالطاعة رجاءً للثواب في الجنة، ويقف حاجزاً أمام الجريمة التي يترتب عليها العقاب والعذاب في النار...

والإيمان بالكتب السماوية المنزلة من عند الله تعالى، وأنها كلام الله ووحيه الذي ينبغي اتّباعه، يجعل المؤمن على طاعة والتزام، ويربي فيه ضميره ونفسه اللوّامة التي تحمله على الخير وتباعد بينه وبين الشر.

والإيمان بالرسل عليهم السلام، وهم القدوة الكاملة من البشر، يحمل المؤمن بهم على التأسي بهم في الطاعة والخير والصلاح، والبعد عن كل ما يتنافى مع الإيمان واستقامة السلوك ونظافة المنهج.

---

(١) سورة الرعد، الآية: (٦).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٩٨).

والإيمان باليوم الآخر وما فيه حقائق، إنما هو تربية للشعور الحقيقي بالمسؤولية، وتحقيق للأخلاق الفاضلة المُطلقة في سلوكنا وحياتنا، تحقيقاً فعلياً مستمراً، ثابتاً غير متقلب، بلا نفاق ولا رياء. وكذلك له أثره في انضباط جميع الدوافع والغرائز والتحكُّم في هذه القوى الغريزية الجامحة، خوفاً من الله تعالى وطمعاً في جنته...

والإيمان بالقَدَر له أثره في الفرد والمجتمع، فهو قوة دافعة بنّاءة، وله صلة بالمسؤولية عن العمل الذي يعرّض صاحبه للجزاء، وهو يحمل صاحبه بعد وقوع الأقدار على أخذ العبرة والدرس، والتوبة من الخطأ والذنب.

وليس هذا الذي تقدم حصراً واستيعاباً لأثر هذه الأركان في مكافحة الجريمة واختفائها، وإنما هي إشارات تدل على ما وراءها[١].

التوبة ميلاد جديد:

ليس الذنب أو الجريمة التي قد يقع فيها الإنسان ضربة لازِب له لا تنفك عنه، بل إن باب التوبة مفتوح يَلِجُ منه الإنسان إلى ساحة الرحمة والمغفرة، فلا يجوز أن تقعد الخطيئة أو الإثم بصاحبها عن التوبة، ولا أن تكون حجاباً دائماً بين العبد وربّه، ولا أن توقعه في اليأس والقنوط من رحمة الله.

---

(١) انظر: «الحضارة الإسلامية» للمودودي ص(١٣٩) وما بعدها، «أصول التربية الإسلامية» للنحلاوي ص(٧٢) وما بعدها.

وإنما ينبغي دائماً المبادرة والإسراع إلى هذه التوبة الصادقة النصوح، يدفع إليها قلبٌ خاشع، وضمير حيٌّ حسّاس، ونفس لوّامة تدفع صاحبها إلى التطهّر مما وقع فيه دون تسويف أو تأجيل، وقد سلفت أمثلة لذلك في حديث ماعز والغامدية وتوبتهما التي لو قسمت على أهل الأرض لوسعتهم.

وعندئذ يتحرّر من عقدة الذنب والشعور بالإثم الذي كان يطوّقه ويجعله نهباً للقلق والوساوس والاضطراب، أو يوقعه في اليأس، أو يدفعه إلى الاعتقاد بخرافة ما للتكفير عن ذنبه كما يفعل الذين يقولون بوراثة الخطيئة.. وعندئذ ـ أيضاً ـ تكون هذه التوبة سبيلاً إلى صحة نفسية يتمتع بها المؤمن، وتكون طريقاً إلى القوة والثقة بالله، وميلاداً جديداً للتائب يحاول بعدها أن يُبْقِيَ صفحته نقية بيضاء من الذنوب والمعاصي والجرائم.

ما الإيمان الذي نعنيه؟

وقد يتساءل المرء أحياناً: إذا كان للعقيدة والإيمان هذا الأثر، فلماذا نجد الجريمة ظاهرة في بعض المجتمعات التي يتصف أهلها بالعقيدة أو يدينون بالإسلام؟

ولا أظن إلا أن الإجابة على هذا التساؤل قد تقدم شطرٌ منها عند الحديث عن ظاهرة الخير والشر، كما تقدم طرف منها في مقدمة البحث، إذ لن يخلو مجتمع من جريمة أو خطأ، لأن الإنسان بطبعه ليس مَلَكاً من الملائكة لا يعرف الشرَّ، ولكنه ذو دوافع وغرائز وشهوات، قد يضعف أمامها فيقع في الخطأ، وتتداركه الرحمة بالتوبة والإنابة.

ونزيد هنا أن العقيدة لها آثارها في حياة الأفراد والأمم، وهي مظاهر يدركها كل ذي عينين، ولكنها تختلف ضعفاً وقوة، وضيقاً وسعة، تبعاً لحال العقيدة ذاتها ومدى سلطانها على النفوس؛ فهناك عقيدة ضامرة ذابلة ضئيلة هزيلة، زاحمتها شؤون الحياة اليومية، فألجأتها إلى حاشية من حواشي النفس وتركتها عاطلة لا عمل لها، هامدة لا حراك بها، إلا في فترات قصيرة لا تلبث أن تعود بعدها إلى سباتها العميق.. تلك واأسفاه هي حال العقيدة في نفوس الكثرة الكاثرة منا أفراداً وجماعات، أليس أكثر الناس يؤمنون بواجب التضافر والتآزر وهم أشتات متفرقون؟!.. ويؤمنون بضرورة الأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية وهم ضعاف متثاقلون؟!.. ويؤمنون بفريضة البذل والتضحية وهم أشحّاء حريصون على الحياة؟!.. ويؤمنون بالله تعالى ووجوب طاعته، ويعرفون أضرار الجريمة والانحراف، وبشاعة العدوان والظلم ولكنهم يتساقطون ويتعلَّلون بشتى المعاذير، مثلهم في ذلك مثل المريض الذي يعتقد أن لا شفاء له إلا بتجرع مرارة الدواء ولكنه تخذله عزيمته وتقعد به همَّتُه عن تناوله... فما غناء هذه العقيدة الجافة الميتة التي لا توقظ نائماً ولا تحرّك ساكناً..؟؟

وهناك عقيدة نصف عاطلة تهيمن على جانب واحد من جوانب السلوك ولا سلطان لها على الجانب الآخر منه. مثال ذلك: أننا نرى فريقاً من الناس يحسنون معاملة الخلق، ولا يحسنون معاملة الخالق، يعجبك من أحدهم أنه لا يخون الأمانة أو لا يشهد الزور، أو لا يجور في الحكم، ولكنك ترى هذا الصنف من الناس مقطوعي الصلة بالله الذي خلقهم ورزقهم، لا

يوجِّهون وجههم إليه، ولا يعتمدون في شؤونهم عليه، ولا يذكرونه إلا قليلاً... وترى فريقاً على العكس من ذلك تبلغ بهم المحافظة على مراسم العبادات، ونوافل الطاعات، أنهم يتورَّعون عن نقص تسبيحة منها أو تكبيرة، ولكنهم لا يتورَّعون أن يحكِّموا الهوى في أحكامهم، وأن تنطوي على الحقد والحسد قلوبهم، وأن يتّهموا الأبرياء بما يعلمون براءتهم منه، وتراهم وقد أذلَّ الحرصُ والطمع أعناقهم، لا يأبون أن يقفوا مواقف الذلة الصَّغار، اجتلاباً لعَرَض من أعراض الدنيا، أو استبقاء لما في أيديهم منه.. هؤلاء وأولئك إن كانت لهم عقيدة فهي عقيدة مصابة بشللٍ نصفي ويوشك أن يسري الشلل إلى نصفها الآخر.

وأخيراً هناك عقيدة سويَّة قوية، حيَّة نامية، يقِظَة واعية، مسفرة مشرقة، يغمر ضوؤها جوانب النفس، ويسري ماؤها في أغوار القلب، فهي للضمير مناره الذي يهديه سواء السبيل، وهي للإرادة قوتها النازعة الوازعة، عن أمرها يصدر صاحبها في حركاته وسكناته، ونحو أهدافها يتوجّه في أقواله وأعماله، يتلقى دائماً وحيها ويستلهمه، ويتوخّى إرشادها ويترسّمه... فإذا أصبح ذلك دأبه ودينه صغرت في عينيه الدنيا وزينتها، وتضاءلت في نفسه نوازع الهوى وحاجات الجِبِلَّة، فلا يفكر في مطالب شخصه إلا لماماً، ولا يركن إلى الدعة واللهو إلا استجماماً.. على أنه حين يُلِمّ بشيء من ذلك فإنما يتناوله باسم العقيدة والمبدأ، وعلى النحو الذي ترسمه له العقيدة والمبدأ، استعانة على الحق وتقوّياً على الجد.

أولئك حقاً هم أصحاب العقائد والمبادئ الذين فنيت أشخاصهم في عقائدهم، وانمحت أهواؤهم في مبادئهم، وأصبحوا كأنهم هم عقائد متجسدة، ومبادئ ماثلة تمشي في الناس.. أولئك هم الذين لا تهمُّهم أنفسهم لأنهم باعوها لله بيعاً رابحاً، أولئك الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.. أولئك هم الراشدون، فضلاً من الله ونعمه[1].

وعن هذه العقيدة الصادقة الصافية التي يقترن فيها القول بالعمل يأتي الأثر القويّ في استقامة السلوك ونظافة الشعور وطهارة النفس، ليحاصر هذا كلُّه الجريمةَ ويضيّق عليها، أو ليمنعها ويقي منها.

وقد تحدَّث القرآن الكريم عن أولئك الذين يعلنون الإيمان بألسنتهم دون أن يخالط شغاف قلوبهم، مخادعةً ورياء فقال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾[2].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾[3].

كما تحدَّث عن أولئك الذين يعرفون الحق ولكن الكِبْر

---

(١) انظر: «نظرات في الإسلام» د.محمد عبدالله دراز، ص(٢٥ ـ ٢٧).
(٢) سورة البقرة، الآيتان: (٨، ٩).
(٣) سورة النساء، الآية: (١٤٢).

يحول بينهم وبين الإذعان له: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

إن الإيمان الصادق تصديق وقول وعمل، تصديق بالله وبرسوله وعالم الغيب، لا يشوبه شك ولا ارتياب، يتغلغل في سويداء القلب فيتذوق حلاوته ولا يرضى به بديلاً.

وقول يجري على اللسان ليعبِّر عما في القلب من عقيدة راسخة تسري في دم المسلم وتخالط وتمتزج بمشاعره. وعمل ينبثق من صدق الإيمان وبواعثه مسارعة إلى الخير وإذعاناً لله وانقياداً لشريعته، فيرى الناس فيه الواقع الحي للإيمان ومقتضياته جهاداً وبذلاً: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾[2].

وهذا الإيمان هو الذي يخلق الإنسان خلقاً جديداً فيصوغه في قالب إيماني يبرز صورة المؤمن الحق، الذي أطاع الله مخلصاً له الدين فأخضع سلوكه لمرضاة ربه مستسلماً راضياً: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[3]. فلا اختيار له في تصرف إزاء أمر الله وأمر رسوله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ

(١) سورة البقرة، الآية: (١٤٦).
(٢) سورة الحجرات، الآية: (١٥).
(٣) سورة النساء، الآية: (٦٥).

مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[1].

هذا الإيمان هو الذي يهذِّب السلوك ويقيم قواعد العدل. ويحرس الحقوق ويقضي على الفوضى والفساد والشر، ويربط بين قلوب معتنقيه برباط المحبة والتراحم وهو رباط لا يعدله رباط آخر من الجنس أو اللغة أو الجوار أو المصالح المشتركة. وما ساد الإيمان في أمّة واستيقظت مشاعرها عليه إلا وساد فيها الأمن النفسي في حياة الفرد والأمن الجماعي في حياة المجتمع وإذا فقدت أمة هذا الإيمان دبّ فيها الفساد وأهدرت القيم وأصبح أمرها فوضى هذا هو واقع الحياة اليوم، في كثير من المجتمعات وعند كثير من الناس[2].

الخلاصة:

وبعد، فإننا ندرك أن الإيمان ضرورة لاختفاء الجريمة ومكافحتها، حين ندرك ـ كما أدرك المؤمنون، والملحدون قاطبة، على السواء، أن الإيمان بالله هو:

أُسُّ الفضائل، ولجام الرذائل،

وقوام الضمائر،

وسند العزائم في الشدائد،

وبَلْسَم الصبر عند المصائب،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٣٦).

(٢) انظر: «الندوة العلمية لدراسة تطبيق التشريع الجنائي».

وعماد الرضىٰ والقناعة بالحظوظ،

ونور الأمل في الصدور،

وسَكَنُ النفوس إذا أوحشَتْها الحياة،

وعزاء القلوب إذا نزل الموت أو قَرُبَتْ أيامه...

والعروة الوثقىٰ بين الإنسانية ومُثُلِها الكريمة[1]...

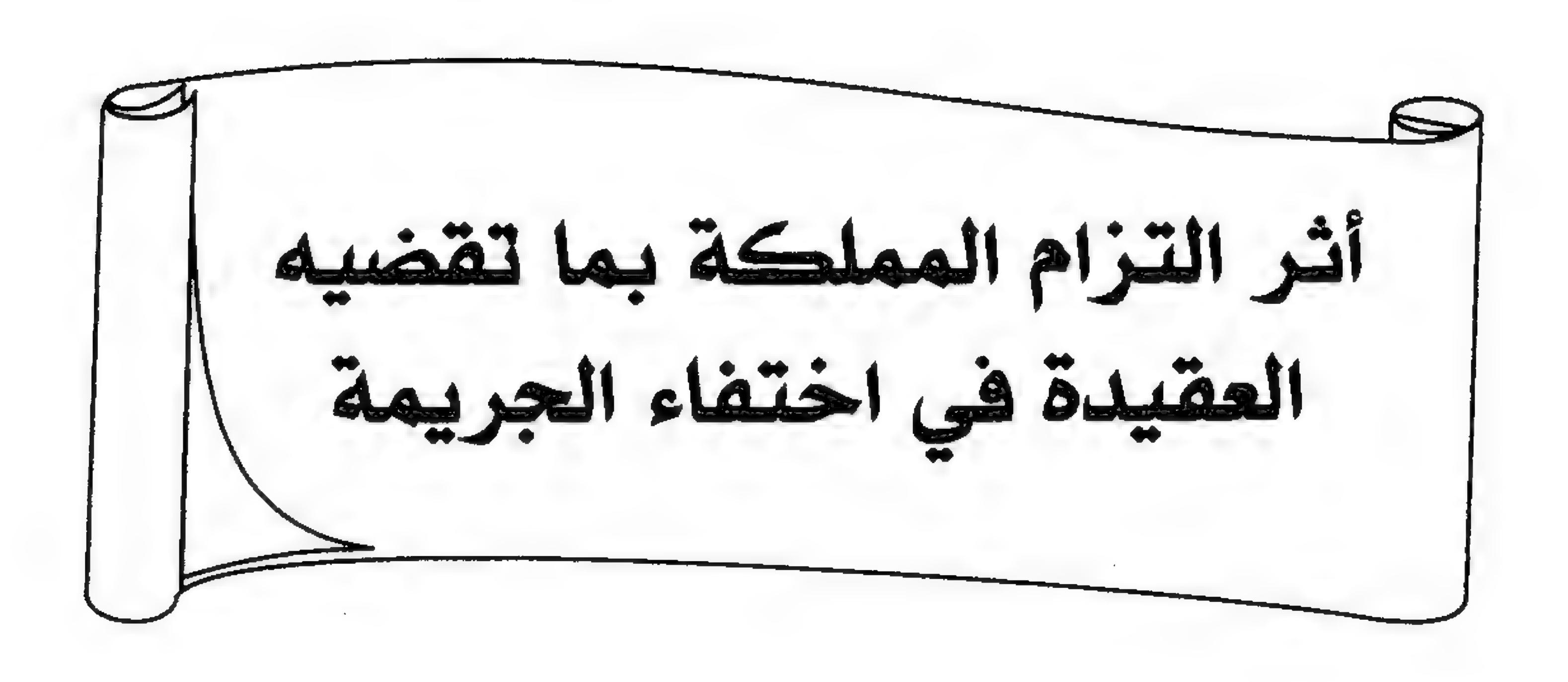


(١) «قصة الإيمان» للشيخ نديم الجسر، ص(٤٤٠).

الفصل الخامس

أثر التزام المملكة بما تقتضيه العقيدة في اختفاء الجريمة

- بين عهدين. . .
- التزام المملكة بالمنهج الإسلامي.
- تطبيق التشريع الإسلامي في المملكة.
- حالة الأمن قبل تأسيس المملكة.
- حالة الأمن بعد تأسيس المملكة.
- شهادات العلماء والمفكرين المسلمين.
- شهادات الغربيين من غير المسلمين.



بين عهدين:

في القرن السابع الميلادي منّ الله تعالىٰ على جزيرة العرب بالإسلام، فارتقى فيها المجتمع وانحصرت فيها الجريمة إلى أقصى حدٍّ متصوَّر. ولكن بتعاقب الأزمان واضطراب السياسة عادت الجزيرة إلى الانحطاط والتخلف، وانتشرت فيها الجريمة واختلَّ الأمن. وكل ذلك بسبب الابتعاد عن أحكام الشريعة، وكانت هذه الصورة على أشدها في وسط الجزيرة.

وفي القرن الثاني عشر الهجري (القرن الثامن عشر الميلادي) ظهر العالِم المجدِّد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ فدعا إلى الالتزام التام بعقيدة الإسلام الصحيحة، وإلى تطبيق الشريعة تطبيقاً كاملاً، وهيأ الله له نصيراً هو الإمام محمد بن سعود؛ فقامت في الجزيرة دولة على أساس العقيدة الإسلامية الحقَّة تطبّق الشريعة، فنعمت البلاد بالأمن والطمأنينة وعاد إليها الرخاء وانتشر فيها العدل بشكل لم يكن موجوداً فيها من قبل إلا في عصر الإسلام الأوَّل. ولكن قوىً خارجية حاربت الدعوة ودولتها حروباً طويلة قاسية فتعرضت البلاد

لهزاتٍ ضعف أثناءها تطبيق الشريعة فعمَّ الاضطراب وانتشرت الجريمة.

ولمّا ولي الأمر جلالة الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ أمر بتطبيق الشريعة، كما فعل أجداده، وسنرى على أية حال كيف كانت البلاد قبل حكم الملك عبدالعزيز؟ وهل عاد الأمن وانكمشت الجريمة في عهده فأصبح الحال على ما كانت عليه البلاد في عهد أجداده الأُوَل؟

وهل تنخفض معدلات الجريمة أم ترتفع في المملكة؟ ثم أخيراً هل هناك علاقة وارتباط بين تطبيق التشريع الإسلامي وانخفاض معدلات الجريمة[١]؟

التزام المملكة بالمنهج الإسلامي:

دأبت المملكة العربية السعودية منذ تأسيسها على يد جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله على اتّباع منهج متميز في سياستها الداخلية والخارجية يحتل الإسلام الركيزة الأساسية فيه. فالإسلام يعتبر المصدر الرئيسي والوحيد لتشريعات المملكة العربية السعودية، ويعتبر القرآن هو دستور الدولة «يحكم العلاقة بين الفرد والخالق، والفرد والأسرة، والفرد والمجتمع، والفرد والدولة، والأسرة والمجتمع، والمجتمع والدولة، والدولة والدول الأخرى». ولقد أوضح خادم الحرمين الشريفين الملك

---

(١) انظر: «الندوة العلمية لدراسة تطبيق التشريع الجنائي» الجزء الثاني، ص(٩٩ ـ ١٠٠).

فهد بن عبدالعزيز في الكلمة التي وجهها إلى المواطنيين في أعقاب إصداره أنظمة الحكم الثلاثة: النظام الأساسي للحكم، ونظام مجلس الشورى، ونظام المناطق: المنهجَ الذي قامت عليه المملكة العربية السعودية بقوله: «في التاريخ الحديث قامت الدولة السعودية منذ أكثر من قرنين ونصف على الإسلام حينما تعاهد على ذلك رجلان صالحان مصلحان هما: الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمهما الله.

قامت هذه الدولة على منهاج واضح في السياسة والحكم والدعوة والاجتماع. هذا المنهاج هو الإسلام عقيدة وشريعة..

ولئن كانت العقيدة والشريعة هي الأصول الكلية التي نهضت عليها هذه الدولة فإن تطبيق هذه الأصول تتمثل في التزام المنهج الإسلامي الصحيح في العقيدة والفقه والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي القضاء وفي العلاقة بين الحاكم والمحكوم وبذلك كانت السعودية نموذجاً متميزاً في السياسة والحكم في التاريخ السياسي الحديث.

ولقد استمرّ الأخذ بهذا المنهاج في المراحل التالية جميعاً حيث ثبت الحكام المتعاقبون على شريعة الإسلام، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.. حيث بنى المملكة العربية السعودية ووحّدها على ذات النهج على الرغم من أنه واجه ظروفاً تاريخية صعبة. وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهته في أثناء توحيد البلاد، فقد حرص الملك عبدالعزيز على إنفاذ منهج الإسلام في الحكم والمجتمع مهما كانت الصعوبات والتحديات. ويتلخص

هذا المنهج في إقامة المملكة العربية السعودية على الركائز التالية:

أولًا: عقيدة التوحيد التي تجعل الناس يخلصون العبادة لله وحده لا شريك له، ويعيشون أعزَّة مكرَّمين.

ثانياً: شريعة الإسلام التي تحفظ الحقوق والدماء، وتنظّم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وتضبط التعامل بين أفراد المجتمع، وتصون الأمن العام.

ثالثاً: حمل الدعوة الإسلامية ونشرها، حيث أن الدعوة إلى الله من أعظم وظائف الدولة الإسلامية وأهمها.

رابعاً: إيجاد «بيئة عامة» صحية صالحة مجردة من المنكرات والانحرافات تعين الناس على الاستقامة والصلاح. وهذه المهمة منوطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

خامساً: تحقيق «الوحدة» الإيمانية التي هي أساس الوحدة السياسية والاجتماعية والجغرافية.

سادساً: الأخذ بأسباب التقدم وتحقيق «النهضة الشاملة» التي تيسّر حياة الناس ومعاشهم وتراعي مصالحهم في ضوء هدي الإسلام ومقاييسه.

سابعاً: تحقيق «الشورى» التي أمر الإسلام بها ومدح من يأخذ بها إذْ جعلها من صفات المؤمنين.

ثامناً: أن يَظلّ الحَرَمان الشريفان مطهَّرَين للطائفين والعاكفين والركَّع السجود ـ كما أرادهما الله ـ بعيدَين عن كل ما

يحول دون أداء الحج والعمرة والعبادة على الوجه الصحيح، وأن تؤدي المملكة هذه المهمة قياماً بحق الله وخدمة للأمّة الإسلامية.

تاسعاً: الدفاع عن الدين والمقدسات... الوطن والمواطنين والدولة».

ومن هذا المنطلق تحرص المملكة العربية السعودية على أن تكون جميع خطواتها منسجمة مع هذا التوجه العام للدولة والمجتمع. لذا فإن أي قرار أو تحرك سياسي تقوم به المملكة إنما ينبع أساساً من تمسكها بالتشريع الإسلامي في معاملاتها واحتكامها في المجالات الدولية الخاصة والعامة إلى ذلك التشريع باعتباره أضمن وأسلم قانون لسلامة البشرية[١].

تطبيق التشريع الإسلامي في المملكة:

ما كاد أن يستقر الأمر في ربوع شبه الجزيرة العرب وتتوحّد أرجاؤها المترامية في ظل دولة عظيمة بقيادة قائد رائد يحمل على عاتقه مسؤولية إعلاء كلمة الله ـ حتى أن شرع في التطبيق المنظم للتشريع الإسلامي في كافة مجالات الحياة. وقد أعطى الجانب المنظِّم للأمن والاستقرار وتحقيق العدالة الاجتماعية ما يستحقه من أولوية في التنفيذ. فتحولت البلاد من

---

(١) انظر: «الإسلام في السياسة الخارجية السعودية» د.عبدالعزيز حسين الصويغ ص(١٩ ـ ٢٠).

الفوضى إلى النظام ومن القلاقل وغارات القبائل إلى الاستقرار، ومن الخوف على النفس والمال والعرض إلى الاطمئنان والشعور بالأمان. وبعد أن كانت الغلبة للقوي، والحقوق لا يحفظها إلا السلاح والباع الطويلة، صار المواطنون جميعهم سواسية أمام النظام وهو شرع الله المنزل، ولأول مرة منذ انهيار الدولة الإسلامية شعر الناس بالعدالة الاجتماعية والسلام. فلننظر بشيء من التفصيل المجمل كيف كان حال الجزيرة من الناحية الأمنية وكيف صار بعد تطبيق التشريع الإسلامي[1].

حالة الأمن قبل تأسيس المملكة:

في دراسة ميدانية عن «أثر تطبيق التشريع الجنائي في استتباب الأمن في المملكة» قدمها مدير عام مركز أبحاث الجريمة بوزارة الداخلية، نجد وصفاً لحال الأمن قبل تأسيس المملكة وبعدها، وإجابة على التساؤلات التي سلفت في مقدمة هذا الفصل، ولذلك فإن الاعتماد على هذه الدراسة يعطينا دليلاً واقعياً على النتائج والآثار التي ترتبت على الالتزام بالإسلام والتشريع الإسلامي، ولهذا نوجز ذلك فيما يلي:

يُجمع ذوو الخبرة فيما ذكروه عن حالة الأمن في البلاد، قبل تأسيس المملكة، على أن الأمن كان مفقوداً بوجه عام. فنظامه فوضى، وعدم الاستقرار والخوف ظاهرةٌ تسود في ربوع البلاد؛ بواديها وقراها وحواضرها، والأحوال مضطربة تشبه إلى

---

(١) انظر: «الندوة العلمية» المرجع السابق.

حدٍّ كبير ما كان سائداً أيام الجاهلية الأولى. فالحقُّ مع القويِّ وإن كان مجرماً، والبادية تغير على القرية والحاضرة وتهيمن عليهما، لا يردعها في ذلك شريعة الإسلام ولا الأمير المعيَّن، والقبائل في البوادي يقاتل بعضها بعضاً رغبة في الزعامة والاستعلاء من جهة، ولأن الزعامة من جهة أخرى تجلب معها النفوذ والاستئثار بالغنائم والأسلاب والأموال المنهوبة التي يستطيعون شراء الأسلحة النارية والبيضاء بها، وبذلك يزدادون قوة ومنعة تجعلانهم أقدر على صد عدوان القبائل الأخرى، وعلى الإغارة على القرى والحضر والقيام بمزيد من عمليات السلب والنهب وقطع الطرق على المسافرين حجاجاً كانوا أو تجاراً أو زوّاراً. وقد شاع الغزو والقتال كما ذكرنا آنفاً، بين قبيلتي حرب وجهينة في الحجاز، والمنتصرة منهما تبسط سلطانها على جزء من حدود الأخرى على مضض منها، وكم كان النصر يعقد لقبائل حرب التي بلغ من سطوتها أنها كانت لا تسمح بمرور الحجّاج من ديارها أو حتى قرب ديارها إلا بعد دفع أتاوة معيَّنة حتى ولو كان الشريف نفسه، كما أن قبيلة عتيبة كانت كثيراً ما تصطدم مع جيرانها من قبائل قحطان ومطير، بل إن كثيراً من أفراد هذه القبائل ما يكادون يرون قافلة في طريقها إلى مدينة الطائف أو خارجة منها إلى قرى البادية إلا ويسلبونها ولو أدَّى ذلك إلى قتل مرافقيها.

وأجمع ذوو الخبرة على أن الجرائم الشائعة، فيما قبل تأسيس المملكة كانت القتل أو الأخذ بالثأر، والجرح وقطع الطريق، والسرقة، وهتك العرض والزنا، وتعاطي المسكرات في

بعض المدن. ولم يكن التشريع الجنائي الإسلامي يطبَّق في البادية، لأن البدو لهم قانونهم العرفي غير المكتوب، الذي توارثوه عن أسلافهم ولم يكن يطبَّق في القرى من الشريعة الإسلامية إلا قانون الميراث، بينما كانت العدالة العرفية هي السائدة لديهم أيضاً لكثرة اتصالهم بقبائل البادية وتعاملهم معهم وتأثرهم بهم، ووقوعهم تحت سيطرتهم.

أما في المدن فقد كان تطبيق التشريع الجنائي الإسلامي، متفاوتاً تفاوتاً كبيراً، وسبب ذلك انتشار الأمية والجهالة وضعف الوعي بالأحكام الشرعية[١].

حالة الأمن بعد تأسيس المملكة وتطبيق التشريع الإسلامي:

يجمع كل الشيوخ الذين سئلوا في المناطق الخمسة التي شملتها الدراسة، على استقرار الأحوال الاجتماعية واستتباب الأمن بعد تأسيس المملكة العربية السعودية وإعلانها دولة مستقلة ذات سيادة على كل أراضيها في الشمال والجنوب والشرق والغرب والوسط، لا فرق في ذلك بين بواديها أو حضرها، وشعور أفراد المملكة بهذا التحول العظيم، الذي حدث في مجتمعهم الذي قوّى انتماءهم إليه وارتباطهم به، وجعلهم يتحدون في الأهداف ويصبحون صفاً واحداً.

---

(١) انظر: «الندوة العلمية لدراسة تطبيق التشريع الجنائي» ج/٢، ص(١٢٥ - ١٢٧).

دلائل استتباب الأمن:

ودليلهم على استقرار الأحوال واستتباب الأمن في كل ربوع المملكة أن أي شخص يستطيع السفر إلى أي مكان فيها، والسير في أي طريق من طرقاتها، دون أن يتعرض له أحد سواء مرَّ على ـ حدِّ قولهم ـ في ديار حرب أو ديار جهينة، أو ديار أية قبيلة من القبائل، فالكل قد عرف الحق وآمن به وعاد إليه، ويمكن لأي شخص أيضاً أن يحمل من الدراهم ما شاء، دون خوف من قطاع الطريق أو نهب أو سرقة، وإذا حدث أن ضاع من أي شخص شيء، فهو واثق من أنه سيجده في المكان الذي سقط منه أو ترك فيه أو عند رجال الأمن. والحجّاج إلى بيت الله الحرام، أصبحوا في أمن كامل على أنفسهم وأموالهم ومتاعهم، وهكذا أصبحت مشكلة الأمن في البلاد، التي كانت الشغل الشاغل للمقيم والمسافر، ولأبناء البلد والأجانب على حد سواء وكأنها لم تكن، وزال الخوف بل الرعب من عدم الأمان والعدوان، من النفوس، وعمّت الثقة والطمأنينة على النفس والعرض والمال والمتاع، وصار الحجاج في كل عام، يعودون إلى أوطانهم بعد أداء الفريضة، يحكون لآلهم وذويهم عما شاهدوه ولمسوه بأنفسهم، من رعاية وأمن واستقرار، فأصبح ذلك خير دعاية للتجربة السعودية في تحقيق تحوّل السكان من الضلالة والخوف إلى الاستقرار والأمان.

أسباب استتباب الأمن:

وعندما سئل ذوو الخبرة عن أسباب هذا التحول العظيم

ذكروا أن أعظم الأسباب ـ وهو السبب قوي الأثر ـ هو تطبيق التشريع الجنائي الإسلامي تطبيقاً موحداً لا اختلاف فيه، في جميع مناطق المملكة، والتشدُّد في ذلك إلى أقصى حد، ولا شك أن تنفيذ الشريعة الإسلامية في كل مجال من مجالات الحياة يمنع الجشع والطمع ويرهب المعتدين ويوقظ ضمائر الناس ويدعوهم للتكافل والتراحم، ويشيع الرخاء والطمأنينة بينهم فيصبح من الميسور سياستهم والسهر على مصالحهم وحفظ الأمن بينهم، ولكن ذلك يشترط وجود حاكم قوي عادل نافذ الكلمة مرهوب الجانب، وقد توفرت هذه الصفات كلها في الملك عبدالعزيز رحمه الله الذي يؤثر عنه قوله مراراً وتكراراً: والله والله ما أخاف على هذا المُلْك الذي أنعم الله عليَّ به، إلا من دعوة مظلوم. وهناك قصص كثيرة تروى عن عدله بالرعية فلقد كانت سيرته ولا تزال هادياً للحاكمين من بعده.

ولقد أجمع كل من سئلوا من ذوي الخبرة على أن التطبيق المنظم الشامل الواعي للتشريع الجنائي الإسلامي في كل الجرائم وسرعة المحاكمات أمام قضاة مدرَّبين غيورين كان له أكبر الأثر في ردع من تُسَوِّل له نفسه الخروج على كتاب الله وسنَّة رسوله الكريم. الأمر الذي يؤثّر تأثيراً بالغاً في مكافحة الجريمة، ولقد كان ذلك موضع ارتياح بل اعتزاز لدى ذوي الخبرات، الذين أجمعوا على أنه لا يحفظ الأمن ويجعله مستتباً في كل مكان ويجعل الأحوال مستقرة في كل أرجاء المملكة سوى العمل بكتاب الله عز وجل وسنّة رسوله عليه الصلاة والسلام.

ونخلص مما سبق إلى تأكيد حقيقة بالغة الأهمية بخصوص

استقرار الأحوال وحفظ الأمن ومكافحة الجريمة في المجتمع، وهي أنها تهدف إلى تحقيق سلامة النظام في المقام الأول. وهذه القاعدة عكس علاقة الوضع المتردّي من الناحية الأمنية الذي تعاني منه المجتمعات اليوم والأنظمة والقوانين الوضعية والمتأثرة بها. وتدل على الرباط الدقيق القائم ما بين تطبيق التشريع الجنائي الإسلامي وانخفاض معدلات الحوادث الجنائية في هذه البلاد.

ولقد ذكرنا في مقدمة البحث أن الدارس لإحصاءات الحوادث الجنائية في المملكة يجدها منخفضة خاصة عند النظر إليها كمعدلات في الألف من السكان، الأمر الذي يمكن معه مقارنتها بالمعدلات المماثلة في الدول الأخرى.

فإذا ما استعرضنا معدلات حدوث الجرائم في مجموعة من الدول وقارنّا تلك المعدلات بالمعدل المحسوب للمملكة العربية السعودية في سنة **١٣٩٢**هـ المقارب لعام **١٩٧٢**م وهو **٢٢**، لاتضحت لنا حقيقة الوضع الأمني الفريد الذي تتمتع به المملكة. ولقد حسبنا معدلات حدوث الجرائم المبلّغة إلى الشرطة بالنسبة للألف من عدد السكان في بعض الدول التي عثرنا على إحصاءات منشورة لها فوجدناها كما يلي:

جدول[1]
معدلات وقوع الجرائم في الألف من السكان لعدد من الدول في مختلف أنحاء العالم

اسم الدولة	عدد السكان	عدد الجرائم	نسبة حدوث الجرائم في الألف من السكان	سنة الإحصاء
اسبانيا	١٥٥١٩٨٩٩	٠١١٢٧٠٠	٠٠٧,٢٦	١٩٧٢
استراليا	١٢٧٢٨٤٦١	٠٣٠٧٣٦٠	٠٠٧٥,٠٠	١٩٧١
المانيا الاتحادية	٦١٦٧٣٥٠	٢٥٧٢٥٣٠	٠٤١,٧١	١٩٧٢
أندونيسيا	١٢٣٠٠٠٠٠٠	٠١٨١٤٠٧	٠٠١,٤٧	١٩٧٢
ايطاليا	٠٥٤٦٤٢٣١٨	١١٣٦٨٠٨	٠٢٠,٠٨	١٩٧٢
تونس	٠٠٥٢٠٠٠٠	٠٠٤١٦٣٣	٠٠٨,٠٠	١٩٧٢
الدنمارك	٠٤٩٧٥٦٥٣	٠٣٠١١٤٢	٠٦٠,٥٢	١٩٧٢
رومانيا	٢١٠٠٠٠٠٠	٠٠١٦٨٥٨	٠٠٥,٠٨	١٩٧٢
السودان	١٧٠٠٠٠٠	٠٠٤٢٤٤٤	٠٠٢,٥٠	١٩٧٢
غانا	٠٩٠٠٠٠٠٠	٠٠٩٦٥٠٥	٠١٠,٧٢	١٩٧٢
فرنسا	٥١٩١٤٦٠٠	١٦٧٥٥٠٧	٣٢,٢٧	١٩٧٢
فنزويلا	١١٣٠٠٠٠٠	٠٠٧٧٦٢٨	٠٦,٨٦	١٩٧٢
فنلندا	٠٤٥٩٨٠٠٠	٠٢٩٢٠٨٤	٦٣,٥٢	١٩٧٢
كندا	٢١٩٨٤٠٠٠	١٦٤٨٨١٧	٧٥,٠٠	١٩٧٢
كوريا	٣٣١٦٧٠٠٠	٠٤١٢١٣٧	١٢,٤٢	١٩٧٢
الكويت	٠٠٨٠٠٠٠	٠٠٠٩٩٨٣	١٢,٤٨	١٩٧٢
كينيا	١٢٠٦٧٠٠٠	٠٠٥٧٢٢٩	٠٤,٧٤	١٩٧٢
لبنان	٢٥٠٠٠٠٠	١١٢١٩٧٢	٤٤٨,٧٧	١٩٧٢
ليبيا	٢٢٥٧٠٣٧	٠٠٠٦٧٨٠	٠٠٣,٠٠	١٩٧٢
مالي	٠٥٠٠٠٠٠٠	٠٠٠١٦٦١	٠٠٠,٣٣	١٩٧٢
مراكش	١٧١٠٩١٣٣	٠٠٧٠٠١٣	٠٤,٩٠	١٩٧٢
اليابان	١٠٧٣٣٢٠٠٠	١٣٩٦٠٣٢	١٣,٠٠	١٩٧٢

(١) عن «الندوة العلمية لدراسة تطبيق التشريع الجنائي الإسلامي».

شهادات العلماء والمفكرين المسلمين:

ونُثْبت هنا بعض الشهادات التي أدلى بها بعض العلماء والمفكرين ورجال القضاء. وهي تثبت أن التشريع الإسلامي والالتزام بالعقيدة والإيمان هو العامل الأول في الوقاية من الجريمة قبل وقوعها، وفي اختفائها ومكافحتها.

يقول معالي الشيخ ناصر بن حمد الراشد رئيس ديوان المظالم بالمملكة وعضو هيئة كبار العلماء، وهو أيضاً من رجال العلم والفكر وكان رئيساً لتعليم البنات ورئيساً لشؤون الحرمين الشريفين، يقول حفظه الله: «كانت الفترة ما بين الدور الثاني من الدولة السعودية وما بين قيام الدور الثالث بزعامة الملك عبدالعزيز، كانت هذه الفترة التي انحلَّ فيها النظام الاجتماعي واضطرب حبل الأمن وابتعدت البوادي ـ الذين يشكلون أكثرية في تلك الفترة التي لا يستهان بها ـ عن التدين، وأصبح الجهل بتعاليم الدين كثيفاً فضعف الزاجر الوجداني في النفوس بسبب ذلك فتفاقم أمر الجرائم وذلك أمر طبيعي. ولقد مر حقل هذا الدور بعد سقوط الدولة السعودية الأولى إلى قيام الدور الثاني بقيادة الإمام تركي بن عبدالله وابنه فيصل.

ولما قام الملك عبدالعزيز بدوره الخطير في تأسيس الدولة الراسخة الدعائم الآن اهتمّ أوّل ما اهتمّ ببثّ التعاليم والإرشادات الدينية وخاصة في البوادي فأقام لهم القرى ـ الهِجَر ـ وعيَّن في كل قرية مرشداً دينياً مقيماً بينهم، ففتح الله قلوب الناس لتقبّل التعاليم الدينية، وأقبلوا عليها إقبالاً عظيماً حتى خالط الإيمان

شغاف القلوب ودخلوا في دين الله أفواجاً، فصَفَتِ القلوب وزكت النفوس وسَمَت المشاعر.

ولهذا فإنه رغم النظام الإداري الفريد الذي أسسه الملك عبدالعزيز بتطبيقه للشريعة الإسلامية وانفاذ أحكامها مكافحة للجريمة، فإن الفضل الكبير يعود لله تعالى الذي هدى قلوب أولئك الناس الذين تحوَّلوا تحوّلاً فجائياً وفي فترة قصيرة، ثم يعود إلى الملك عبدالعزيز في عمله الجبار وشعبه لتهجير البوادي وتعميم تعليم الناس أمور دينهم وتركيزه كذلك على إعداد الدعاة إلى دين الله، فأمّنت السبل وهدأت النفوس واطمأنَّ الناس على أنفسهم وأموالهم، ونمت التجارة والزراعة والحرف، واتصلت أقاليم الجزيرة بعضها ببعض. ومن هنا ندرك أن دين الإسلام هو أحسن نظام اجتماعي عرف، وكلما بعد عنه الناس وجهلوه وحكّموا غيره حدثت الفوضى والاضطراب، وقد دلت على هذا: التجاربُ التاريخية المتضافرة بدءاً من عهد الجاهلية الأولى إلى يومنا هذا[١].

ويقول الفقيه القانوني الكبير ـ الشهيد عبدالقادر عودة، صاحب الكتاب القيِّم الفريد «التشريع الجنائي الإسلامي، مقارناً بالقانون الوضعي» وهو أيضاً من كبار رجال القانون والمحاماة في مصر، يقول: «لقد أبرزت التجارب الحديثة أحسن الأنظمة الجنائية، وتبين أن هذا النظام المنشود هو الشريعة الإسلامية، وكانت التجارب التي امتحنت فيها عقوبات الشريعة على نوعين: كلّيّة وجزئية.

---

(١) انظر: المرجع السابق.

فأما التجربة الكلية ـ وهي التي تهمّنا في بحثنا هذا ـ فقد بدئ بها في مملكة الحجاز من حوالي عشرين عاماً حيث طبقت الشريعة الإسلامية تطبيقاً تاماً، ونجحت نجاحاً منقطع النظير في القضاء على الإجرام وحفظ الأمن والنظام.

ولا يزال الناس يذكرون كيف كان الأمن مختلاً في الحجاز، بل كيف كان الحجاز مضرب الأمثال في كثرة الجرائم وشناعة الإجرام. فقد كان المسافر فيه كالمقيم، لا يأمن على ماله ولا على نفسه في بدو أو حضر في نهار أو ليل، وكانت الدول ترسل مع رعاياها الحجاج قوَّاتٍ مسلحةً لتأمين سلامتهم وردِّ الاعتداء عنهم، وما كانت هذه القوات الخاصة ولا القوات الحجازية بقادرة على إعادة الأمن وكبح جماح العصابات ومنعها من سلب الحجاج، كانوا عاجزين عن حماية الجمهور حتى طُبِّقَت الشريعة الإسلامية، فانقلبت الحال بين يوم وليلة، وساد الأمن بلاد الحجاز وانتشرت الطمأنينة بين المقيمين والمسافرين، وانتهى عهد الخطف والنهب وقطع الطريق، وأصبحت الجرائم القديمة أخباراً تروى فلا يكاد يصدّقها من لم يعاصرها أو يشهدها.

وبعد أن كان الناس يسمعون أشنع أخبار الإجرام عن الحجاز أصبحوا يسمعون أعجب الأخبار عن استتباب الأمن والنظام، فهذا يفقد كيس نقوده في الطريق العام فلا يكاد يذهب إلى دار الشرطة ليبلغ عنه حتى يكاد يجد كيسه كما فقد منه معروضاً للتعرف عليه، وهذا يترك عصاه في الطريق فتنقطع حركة المرور حتى تأتي الشرطة لرفع العصا من مكانها، وهذا

يفقد أمتعته وييأس من ردّها ولا يبلّغ عنها ولكنه يجد الشرطة يبحثون عنه ليردُّوا إليه ما فقد منه، وبعد أن كان الأمن يعجز عن حفظه قوات عسكرية عظيمة من الداخل وقوات عسكرية كبيرة من الخارج أصبح الأمن محفوظاً بحفنة من الشرطة المحليين.

تلك هي التجربة الكلية وكفى بها دليلاً على أن النظام الجنائي في الشريعة الإسلامية يؤدي عملاً إلى قطع دابر الجريمة، وأنه النظام الذي يبحث عنه ويتمنّاه اتحاد القانون الدولي[١].

ويقول المستشار علي علي منصور، أستاذ القانون ورئيس محاكم عديدة في مصر، رئيس لجنة خبراء العلوم بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، يقول:

«إن قواعد الشريعة الإسلامية تطبَّق بجملتها في المملكة العربية السعودية، وهناك يقتص من القاتل، وتقطع يد السارق، وأثناء ترددي في الحج مرات علمت أن مجموع الأيدي التي قطعت في عهد الملك عبدالعزيز آل سعود **١٦** يداً خلال **٢٤** سنة، وفّرت على البلاد الكثير من نفقات المحاكم ورجال الشرطة، وأدت إلى استتباب الأمن في تلك البلاد الشاسعة الصحراوية، وكذلك تطبق الحدود في جريمة الإفساد في

---

(١) انظر: «التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي» عبدالقادر عودة: ٧١٢/١ ـ ٧١٣.

الأرض، كما نص عليها القرآن الكريم، وهي أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنْفَوا من الأرض، كما يرجم الزاني المحصن»[1].

من شهادات الغربيين:

وإذا كان الفضل ما شهدت به الأعداء، فإنه من المناسب أن نذكر هنا شهادات بعض علماء القانون من غير المسلمين، لأنها شهادات فوق مستوى الشبهات، إذ أنهم يخالفوننا في الدين والمنهج فلن يجاملوا فيما يقولون، كما أن هذه الشهادات فيها بيان لأثر الإسلام في مكافحة الجريمة ورغبة في الإفادة منها في مجتمعاتهم.

يقول الإيطالي «دي جانيرو»، رئيس لجنة الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة، في مداخلة في الندوة العلمية لتطبيق التشريع الجنائي الإسلامي: «إن مهمة لجنتنا أن تقدم الأعمال التحضيرية للأمم المتحدة في مجال التشريع الجنائي، ومعنى هذا أنها تلعب دوراً كبيراً في اتخاذ الإجراءات الكفيلة برسم السياسة الجنائية لأعضاء الأمم المتحدة لتحسين مواقفهم وأحوالهم الخاصة بتعاونهم الدولي.

إن الهدف الأساسي لنا هو أن نرسم برامج جديدة لمكافحة الجريمة في التشريع الجنائي حتى يكون المجتمع حراً طليقاً من الجرائم.

---

(١) انظر: «نظام التجريم والعقاب في الإسلام» علي علي منصور ص(٣٩).

هذه الجرائم التي طالما عملت على هدم المجتمعات وأصبحت أمراً هاماً جداً وظاهرة كبرى لمكافحة الجريمة التي تهدد المجتمع والأفراد في هذه الحضارة الحديثة.

قد يكون من العسير أن نحاول تعداد أسباب زيادة الجريمة في العالم، والواقع أن هناك تعقيدات وعوامل متشابكة تساعد على زيادة الجريمة؛ أسباب روحية وغيرها، إن هذه التعقيدات تؤدي للوصول إلى شيء هام جداً وهو أن ضياع الإيمان هو السبب الأساسي في زيادة الجريمة في العالم كله.

إن الأمم المتحدة قد أوضحت تماماً قيمة التراث القديم في كل بلاد العالم وفي كل مجتمعات العالم، وكذلك الوسائل والنواحي السياسية والاجتماعية التي يمكن أن تجنب وتقلل من الجريمة. ومن واجب الأمم المتحدة بصفة عامة ومنظماتها المتخصصة أن تجمع المعلومات الكفيلة لدرء الجريمة من جميع بلاد العالم، وهذا شرط أوّلي لاتخاذ القرارات.

إن معرفة الأمور التي تساعد على القيام بمقارنات تؤدي إلى قرارات هامة، إن لجنتنا كانت لديها فرص كبيرة للاطلاع على التراث العظيم للملكة العربية السعودية، وليس هذا يعني أننا قد جمعنا كل ما يلزم من معلومات حول ذلك. إننا نرمي مع ذلك إلى الاستفادة من هذه الندوة لأكبر حدٍّ ممكن، حتى نتمكن من استخدام المعلومات التي نتلقاها هنا في مكافحة الجريمة وتعريف العالم كله بهذه الوسائل العظيمة الكفيلة بنجاح الجهود في مكافحة الجريمة.

إن المملكة العربية السعودية قد أوضحت لنا ـ ونجحت في ذلك ـ أن الشريعة الإسلامية قادرة بدرجة كبيرة جداً على مكافحة الجريمة، أو على الأقل ضرورة توسيع مدى الإيمان وتفهُّمه، إن هذه المهمة يمكن أن تُلَخَّص في كلمة واحدة هي أن المملكة العربية السعودية قد نجحت في كفاحها هذا لكي تحصل على الأمن بطريقة إيجابية وقانونية في بلادها.

كيف يمكن أن نربط هذا بما يجري في منظمات دولية، كيف نربط شعباً يحاول ويستطيع وينجح في محاولته هذه في مكافحة الجريمة، كيف نربط بين هذا وبين المنظمات الدولية التي تهتم بهذا الموضوع نفسه.

أود أن أقول: «إننا نقدّم جميعاً اعترافنا بالجميل للمملكة العربية السعودية ووزارة العدل وكل الأجهزة المختصة في هذا الشأن لهذه الندوة الموفقة»[1].

ويقول البوفسور «جيرهارد ميولر»، رئيس قسم منع الجريمة، والعدالة الجنائية، في نيويورك:

«لقد تأثرتُ بعمق من كل ما سمعت منذ بدء الندوة حتى الآن. وفي الحقيقة إن إنسان اليوم أصبح في حاجة إلى الحماية وسط هذه التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي تهدِّد حياته وأمنه، والتي من شأنها أن تجعل الجرائم في تزايد مستمر.

ولا بد لنا أن نقول: إن الشريعة الإسلامية إذا انتشرت

---

(١) انظر: «الندوة العلمية لدراسة تطبيق التشريع الجنائي الإسلامي وأثره في مكافحة الجريمة» ٢/١٦٣ ـ ١٦٥.

فسوف تساعد كثيراً في الرقابة على المجتمع وعلى الأسرة، وفي المحافظة على الإنسان بصورة عامة، وفي توفير الأمن والطمأنينة للجميع. إنني سعيد جداً أن أرى ما يجري في هذا البلد من حيث التقدم الاجتماعي والتقدم الصناعي. والواقع أننا لم نكن نعلم شيئاً عن هذا ولا نعرف الكثير عما يتمُّ تنفيذه من نظام اجتماعي في مكافحة الجريمة في المملكة العربية السعودية، وفي جزء من العالم الإسلامي. إن هناك أشياء كثيرة يجب أن يعلمها العالم خاصة، وأن التاريخ أبلغنا أنه من الضروري أن نتحد لمواجهة الجريمة في كافة أنحاء العالم فإذا اطّلع العالم على الشريعة الإسلامية فإنه يمكن الأخذ منها بما يكفل سدَّ الثغرات الموجودة في بعض القوانين، خاصة وأن القانون الإنجليزي سوف تضاف إليه بنود جديدة وشروط جديدة لمكافحة الجريمة، وهنا يمكن أن تقارن هذه الشروط وتفسر بتفسيرات إسلامية وخاصة من ناحية الإجراءات، حتى تتوفر القدرة للشعب البريطاني على استيعاب مثل هذه الأمور، وخاصة بالنسبة لمبدأ الشريعة في التحريم، لأن هناك حدوداً يحدِّدها رجال القضاء الذين ما زالوا متأثرين بالقوانين القديمة.

النقطة الثانية: أن كثيرين من زملائنا في العالم كله يفسرون الشريعة الإسلامية من حيث العقوبات تفسيرات مخالفة فعلًا لروح الشريعة، وكان ينبغي عليهم أن يفهموا من الناحية السلوكية والاجتماعية أنكم على حق، وأنكم متأكدون أن هذه العقوبات ستكون صحيحة وسليمة من حيث التعزير والحدود المحدَّدة في كتاب الله وفي السنّة.

وهنا أود أن أقول: إنه من الضروري أن نقوّي النواحي الاقتصادية والاجتماعية عن طريق تطبيق الشريعة الإسلامية حتى تكون الحقوق الإنسانية متكاملة لجميع الأفراد. فإذا نجحتم في تقوية هذا الاتجاه في تطبيق الشريعة بما لها من المرونة فإنكم سوف تساعدون العالم والأفراد والجماعات على البحث عن الطريق السويّ، كما أنكم سوف تعطون مثلاً واضحاً للجميع.

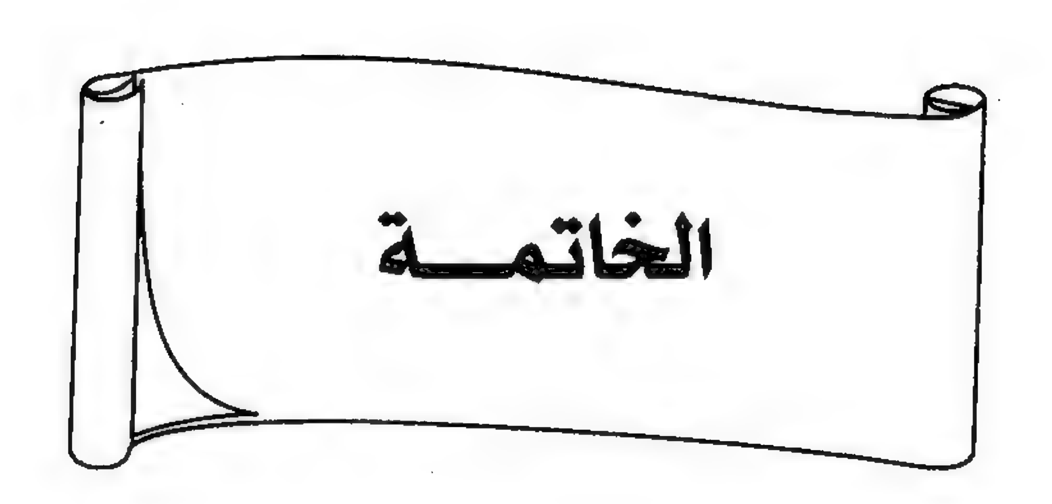
إنني من خلال اطلاعي على البيانات الجنائية تأكدت من دور وفعالية الشريعة الإسلامية في القضاء على الجريمة في المملكة العربية السعودية.

إنني بعد كل هذه الحقائق التي أدركتها من التشريع الجنائي الإسلامي سوف أنقلها إلى اجتماعات الأمم المتحدة»[1].

وعلى شهادات هؤلاء العلماء ورجال القانون، بعد شهادة الواقع على أن الشريعة هي وحدها القادرة على مكافحة الجريمة بطريقة فعالة لارتكازها على العقيدة والإيمان، نغلق هذا الفصل، وبه تتم هذه المباحث التي توخيناها. والله الموفق.



(١) انظر: «المرجع السابق» ص(١٠١ ـ ١٠٢).



وفي ختام هذا البحث، يجدر بنا أن نُلْمِع إلماعاتٍ سريعة إلى أهم ما جاء فيه، وما يمكن أن نجعله توصية وتذكيراً.

إن الإسلام منهج متكامل للحياة البشرية، وهو ضرورة لاستقامتها، وبه كتب الله تعالى قَدَره لهذه الأمة، فكانت خير أمَّة أخرجت للناس. وهو ـ وحده ـ القادر على أن يعيد لها تالد عزِّها ومكانتها بين الأمم. ويقوم الإسلام بكل أحكامه وشرائعه على عقيدة التوحيد الصافية التي تترك آثارها الفريدة في الفرد والأسرة والمجتمع، وعندئذ ينشأ المجتمع المثالي وتختفي الجرائم بآثارها المدمِّرة.

ولذلك فإن الإسلام يقوم على الوقاية من الجريمة قبل أن يقوم على العقوبة، ويكون ذلك بطرق متعددة:

١ ـ التهذيب النفسي والإصلاح الخلقي، وذلك بتربية الضمير أو النفس اللوّامة ـ كما أسماها الله تعالى ـ وذلك بمراقبة الله تعالى والشعور بعظمته، والخوف من عقابه، وبالعبادات التي تهذّب النفس وتطهّرها وتزكيها.

٢ ـ تكوين رأي عامٍّ فاضلٍ ومناخ طيب نظيف يؤدي إلى

الاستقامة في السلوك ومنع الجريمة أصلًا، وذلك عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ - وضع الحواجز المتعددة أمام الوقوع في الجريمة لئلا يتساهل الناس فيها. وهذا يتمثل في كثير من الأحكام الشرعية التي تقي من الجريمة وتباعد الإنسان عنها.

٤ - بعد ذلك يشرع الإسلام العقوبة على الجريمة، فإن العقاب ردع للجاني، وزَجْر لغيره، ومنع لتكرار الوقوع في الجريمة، ومن لا تُصْلِحُه الوسائل السابقة فإن العقوبة وسيلة لإصلاحه وردعه. وهي كذلك كفارة للجريمة والذنب إذا تاب المذنب توبة نصوحاً، وندم على ما اقترف من ذنب[١].

وإن الواجب يقتضي أن نذكِّر بأن تلك الأمور السابقة لا تتحقق إلا إذا أولينا العقيدة كلَّ اهتمامنا، وكانت محور التربية للأجيال، وذلك بتضافر كل عوامل التربية في المدرسة والبيت وفي المسجد والشارع، وفي وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، وإزالة التناقضات بين هذه التربية والواقع الاجتماعي بما قد يكون فيه من سلبيات أو انحرافات أو عوامل هدم.

وإن مما يجدر التنويه به هنا: أن من عوامل الوقاية للشباب من الانحراف والجرائم أن نرتقي باهتماماتهم، وأن نهيء لهم بيئة صالحة نظيفة تساعدهم على الاستقامة. وتقوم مراكز التوعية والنشاط في المدارس والجامعات بدور كبير في هذا

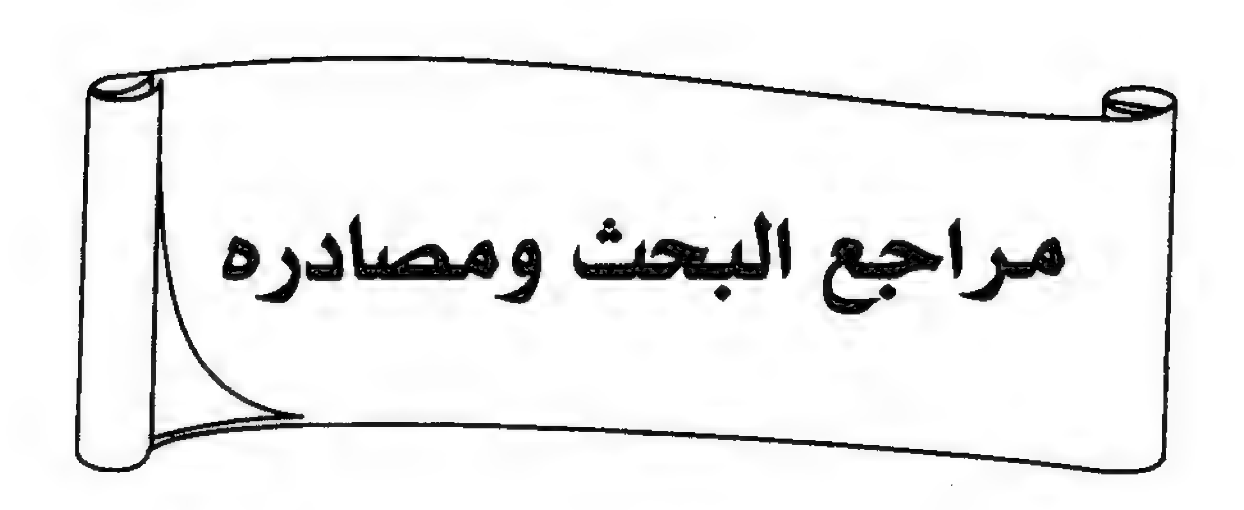
---

(١) «الجنايات في الفقه الإسلامي» د. عثمان ضميرية، ص(٣٠ و٣٨).

المجال، ولذلك فإن تشجيعها واستمرارها وتوسيعها يحقق خيراً كثيراً للأمة والمجتمع، ويقي من الجريمة والانحراف. ونسأل الله تعالى أن يحفظ لهذه الأمّة دينها وشبابها وأمنها.

والحمد لله رب العالمين.





مراجع البحث ومصادره

«مرتبة على حروف المعجم، دون اعتبار لأداة التعريف، وما كان مطبوعاً في القاهرة فلا نشير إلى مكان طبعه».

١ - **أثر تطبيق التشريع الجنائي الإسلامي في استتباب الأمن في المملكة**، د. فاروق مراد، بحث ميداني ضمن أبحاث الندوة العلمية لدراسة تطبيق التشريع الإسلامي، الرياض ١٣٩٦هـ.

٢ - **الأحكام السلطانية، للماوردي**، مطبعة الحلبي، ١٣٩٣هـ.

٣ - **أحكام القرآن، للجصّاص**، مصور عن طبعة الآستانة، ١٣٢٥هـ.

٤ - **أساس البلاغة، للزمخشري**، طبعة دار الكتب المصرية.

٥ - **أسباب الجريمة وطبيعة السلوك الإجرامي**، عدنان الدوري، منشورات ذات السلاسل، الكويت.

٦ - **الإسلام عقيدة وشريعة، للشيخ محمود شلتوت**، طبع دار الشروق.

٧ - **الإسلام في السياسة الخارجية السعودية**، عبدالعزيز الصويغ، الرياض ١٤١٤هـ.

٨ - **الإسلام وعلاقته بالشرائع الأخرى**، عثمان ضميرية، دار الفاروق الطائف ١٤١٠هـ.

٩ - **أصول البحث العلمي**. د.أحمد بذر، وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٨٤م.

١٠ - **أصول التربية الإسلامية**، عبدالرحمن النحلاوي، دار الفكر بدمشق.

١١ ـ **إظهار الحق**، للشيخ رحمة الله العثماني، تحقيق محمد أحمد ملكاوي، الرياض ١٤١٠هـ.
١٢ ـ **الاعتصام**، للشاطبي، دار المعرفة بيروت، ١٤٠٥هـ.
١٣ ـ **الأم**، للإمام الشافعي، مطبعة الشعب عن طبعة بولاق.
١٤ ـ **الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية**، المكتب الإسلامي، بيروت.
١٥ ـ **الإيمان: أركانه وحقيقته**، محمد نعيم ياسين، مكتبة الفلاح بالكويت.
١٦ ـ **الإيمان وأثره في حياة الإنسان**، د. حسن الترابي، دار القلم بالكويت.
١٧ ـ **الإيمان والحياة**، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة بالقاهرة.
١٨ ـ **بحوث في الإسلام والاجتماع**، د. علي عبدالواحد وافي، مكتبة نهضة مصر.
١٩ ـ **بدائع الصنائع**، للكاساني ـ في الفقه الحنفي ـ مطبعة الإمام بالقاهرة.
٢٠ ـ **البداية والنهاية**، لابن كثير، مكتبة المعارف بالرياض، ١٩٦٦م.
٢١ ـ **بصائر ذوي التمييز**، للفيروز آبادي، مطبعة نهضة مصر، ١٤٠٦هـ.
٢٢ ـ **تثبيت دلائل النبوة**، للقاضي عبدالجبار بن أحمد الهمداني، دار العربية، بيروت.
٢٣ ـ **ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان**، لابن الوزير اليماني، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٤ ـ **التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان**، عثمان ضميرية، دار الأرقم الكويت، ١٤٠٢هـ.
٢٥ ـ **تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد**، للصنعاني، مكتبة القاهرة.
٢٦ ـ **التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي**، عبدالقادر عودة، دار التراث العربي ١٩٧٧م.
٢٧ ـ **التشريع الجنائي الإسلامي**، مركز أبحاث الجريمة بوزارة الداخلية، الرياض، ١٤٠٥هـ.

٢٨ ـ **التعريفات**، للشريف الجرجاني، بيروت، ١٤٠٥هـ.
٢٩ ـ **تعريف عام بدين الإسلام**، علي الطنطاوي، مؤسسة الرسالة بيروت.
٣٠ ـ **تفسير القرآن العظيم**، لابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٠هـ.
٣١ ـ **تفسير الفخر الرازي**، دار الفكر بيروت، ١٤٠٥هـ.
٣٢ ـ **تهذيب الأسماء واللغات**، للإمام النووي، دار الكتب العلمية عن الطبعة المنيرية.
٣٣ ـ **جامع البيان عن تفسير آي القرآن**، للطبري، دار المعارف بمصر.
٣٤ ـ **الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي**، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٦م.
٣٥ ـ **الجنايات في الفقه الإسلامي**، عثمان ضميرية، مركز التصوير الطلابي بالطائف.
٣٦ ـ **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، لابن تيمية، مطبعة المدني القاهرة.
٣٧ ـ **حاشية ابن عابدين**، رد المحتار على الدر المختار، مطبعة الحلبي، ١٣٨٦هـ.
٣٨ ـ **الحاوي للفتاوى**، للسيوطي، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٧٨.
٣٩ ـ **حجة الله البالغة**، للدِّهلوي، تحقيق عثمان ضميرية، مكتبة الكوثر الرياض، ١٤٢٠.
٤٠ ـ **الحضارة الإسلامية**: أسسها ومبادئها، لأبي الأعلى المودودي، دار العربية، بيروت.
٤١ ـ **خصائص التصور الإسلامي**، سيد قطب، دار الشروق، بيروت.
٤٢ ـ **خلاف الأمّة في العبادات**، لابن تيمية، تحقيق عثمان ضميرية، الطائف، ١٤١٠هـ.
٤٣ ـ **خلق المسلم**، **محمد الغزالي**، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ١٤١٠هـ.

٤٤ ـ **دراسات إسلامية**، محمد عبدالله دراز، دار القلم بالكويت.
٤٥ ـ **دراسات في الفكر الإسلامي**، عدنان محمد زرزور، مكتبة الفلاح بالكويت.
٤٦ ـ **دراسات في النفس الإنسانية**، محمد قطب، دار الشروق.
٤٧ ـ **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، للراغب الأصفهاني، المطبعة الشرفية بمصر، ١٣٢٤هـ.
٤٨ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**، لابن القيم، تحقيق الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة.
٤٩ ـ **الرسالة الخالدة**، عبدالرحمن عزام، دار الشروق ١٩٦٩م.
٥٠ ـ **ركائز الإيمان**، محمد قطب، دار إشبيليا بالرياض.
٥١ ـ **روح الدين الإسلامي**، عفيف طبارة، دار العلم للملايين، بيروت.
٥٢ ـ **الروض الأُنُف في تفسير السيرة النبوية**، للسهيلي، المطبعة الجمالية، ١٣٣٢هـ.
٥٣ ـ **السلوك الإجرامي والتفسير الإسلامي**، عبدالمجيد سيد منصور، الرياض ١٤١٠هـ.
٥٤ ـ **السياسية الشرعية لابن تيمية**، تقديم محمد المبارك، دمشق، ١٣٨٦هـ.
٥٥ ـ **سيرة عمر بن الخطاب**، لابن الجوزي، الدار القومية للطباعة والنشر.
٥٦ ـ **السيرة النبوية**، لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا، دار المعرفة بيروت،
٥٧ ـ **سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز**، لابن الجوزي، علق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ.
٥٨ ـ **شرح السنة للبغوي**، تحقيق الأرناؤوط، المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ.
٥٩ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**، لابن أبي العز، تحقيق الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٨هـ.

٦٠ ـ **الشريعة الإسلامية وأثرها في الظاهرة الإجرامية**، حمود القثامي، دار المجمع العلمي بجدة.
٦١ ـ **الصحاح وتاج اللغة، للجوهري**، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ١٤٠٢هـ.
٦٢ ـ **صحيح البخاري مع فتح الباري**، المطبعة السلفية تصوير دار المعرفة، بيروت.
٦٣ ـ **صحيح مسلم**، بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، مطبعة الحلبي، **١٣٧٤**هـ.
٦٤ ـ **الطرق الحكمية**، لابن قيم الجوزية، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة.
٦٥ ـ **عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي**، عثمان ضميرية، مكتبة السوادي بجدة.
٦٦ ـ **عالم الملائكة الأبرار**، د.عمر الأشقر مكتبة الفلاح بالكويت.
٦٧ ـ **العقيدة في القرآن**، محمد المبارك، دار الفكر، بيروت.
٦٨ ـ **عقيدة المسلم**، محمد الغزالي، إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر.
٦٩ ـ **عقيدتنا وصلتها بالكون والحياة**، طه الدسوقي، دار الهدى، **١٤٠٥**هـ.
٧٠ ـ **علم أصول الفقه**، عبدالوهاب خلاف، دار القلم بالكويت، **١٩٨٨**م.
٧١ ـ **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، للعيني، مصور عن الطبعة المنيرية.
٧٢ ـ **غريب الحديث، للخطابي**، تحقيق عبدالكريم العزباوي، جامعة أم القرى بمكة المكرمة.
٧٣ ـ **فقه السيرة، لمحمد الغزالي**، إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر.
٧٤ ـ **في ظلال القرآن، سيد قطب**، دار الشروق، **١٣٩٧**هـ.
٧٥ ـ **القائد إلى تصحيح العقائد**، مع كتاب التنكيل، عبدالله المعلمي، دار الإفتاء بالرياض.

٧٦ ـ **القاموس المحيط**، للفيروز آبادي، بترتيب الطاهر الزاوي، مطبعة الحلبي.
٧٧ ـ **القرآن والفلسفة**، محمد يوسف موسى، دار المعارف بمصر.
٧٨ ـ **قصة الإيمان بين العلم والفلسفة والقرآن**، نديم الجسر، دار العربية بيروت.
٧٩ ـ **القضاء والقدر**، د.عبدالرحمن المحمود، الرياض.
٨٠ ـ **قواعد أساسية في البحث العلمي**، سعيد الصيني، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٨١ ـ **القواعد الكبرى**، الموسوم بـ قواعد الأحكام في إصلاح الأنام، للعز بن عبدالسلام، تحقيق د.نزيه حماد، عثمان ضميرية، دار القلم، بدمشق، **١٤٢٠**هـ.
٨٢ ـ **القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى**، لابن عثيمين، دار الأرقم.
٨٣ ـ **الكشاف**، للزمخشري، دار المعرفة، بيروت.
٨٤ ـ **الكليات**، لأبي البقاء الكفوي، دمشق، **١٩٨٢**م.
٨٥ ـ **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر، بيروت.
٨٦ ـ **لوامع الأنوار البهية**، للسفاريني، المكتب الإسلامي، بيروت.
٨٧ ـ **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، للندوي، إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر.
٨٨ ـ **مجمع بحار الأنوار**، لابن طاهر الفتني، حيدر آباد الهند.
٨٩ ـ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، مكتبة المعارف بالمغرب **١٤٠٠**هـ.
٩٠ ـ **المختار من كنوز السنة**، محمد عبدالله دراز، إدارة إحياء التراث، قطر.
٩١ ـ **مداخل إلى العقيدة الإسلامية**، يحيى هاشم فرغل، **١٩٨٥**م.
٩٢ ـ **مدارج السالكين**، لابن القيم، مطبعة السنة المحمدية.

٩٣ ـ **المدخل الفقهي العام**، مصطفى الزرقا، مطابع الأديب، دمشق ١٣٩٢هـ.

٩٤ ـ **مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية**، عثمان ضميرية، مكتبة السوادي، ١٤١٧هـ.

٩٥ ـ **مذاهب فكرية معاصرة**، محمد قطب، دار الشروق.

٩٦ ـ **المسؤولية والجزاء**، د. علي عبدالواحد وافي، مطبعة نهضة، مصر.

٩٧ ـ **المسند**، للإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت.

٩٨ ـ **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، للفيومي، دار المعارف بمصر.

٩٩ ـ **معارج القبول**، للشيخ حافظ الحكمي، دار ابن القيم بالدمام.

١٠٠ ـ **معالم في الطريق**، سيد قطب، دار الشروق ١٣٩٣هـ.

١٠١ ـ **المعجم الفلسفي**، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٤٠٢هـ.

١٠٢ ـ **معجم مقاييس اللغة**، لابن فارس، مطبعة الحلبي.

١٠٣ ـ **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إدارة إحياء التراث بدولة قطر.

١٠٤ ـ **المغني شرح مختصر الخرقي**، لابن قدامة مع الشرح الكبير، دار الفكر، بيروت.

١٠٥ ـ **مفاهيم ينبغي أن تصحح**، محمد قطب، دار الشروق، بيروت.

١٠٦ ـ **مفردات ألفاظ القرآن**، للراغب الأصفهاني، دار القلم بدمشق.

١٠٧ ـ **مقومات التصور الإسلامي**، سيد قطب، دار الشروق.

١٠٨ ـ **الملكية ونظرية العقد**، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٧م.

١٠٩ ـ **منهج القرآن في التربية**، محمد شديد، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١١٠ ـ **الموافقات في أصول الشريعة**، للشاطبي، تحقيق عبدالله دراز، دار المعرفة، بيروت.

١١١ ـ **النبوات**، لابن تيمية، مكتبة الرياض الحديثة.

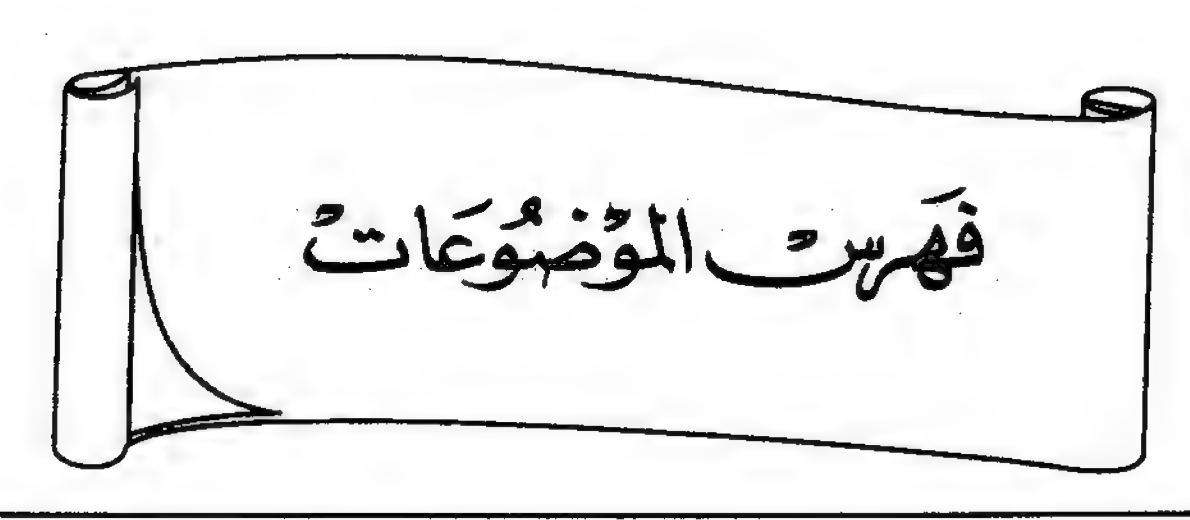
١١٢ ـ **الندوة العلمية لدراسة تطبيق التشريع الجنائي الإسلامي في المملكة العربية السعودية**، مركز أبحاث مكافحة الجريمة بوزارة الداخلية، مطابع الهيئة المصرية العامة ١٩٧٧م.

١١٣ ـ **نظام الإسلام** ـ العقيدة والعبادة ـ محمد المبارك، دار الشروق بجدة، ١٣٩٧هـ.

١١٤ ـ **نظرات في الإسلام**، محمد عبدالله دراز، مكتبة الأرقم بالأردن.

١١٥ ـ **الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**، للدامغاني، تحقيق محمد أبو العزم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.





الموضوع	الصفحة

المقدمة

التمهيد

الموضوع	الصفحة

الفصل الأول
الإسلام منهج كامل

الفصل الثاني
أصول العقيدة ومعالمها

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث

منهج بيان العقيدة وغرسها في النفوس

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع
أثر الالتزام بالعقيدة في مكافحة الجرائم

الفصل الخامس
أثر التزام المملكة بما تقتضيه العقيدة في اختفاء الجريمة

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف

١ ـ منهج الإسلام في الحرب والسلام ـ دار الأرقم بالكويت.
٢ ـ التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان ـ دار الكلمة الطيبة بالقاهرة.
٣ ـ عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي ـ مكتبة السوادي بجدة.
٤ ـ إدراك الركعة بإدراك الركوع مع الإمام ـ مكتبة السوادي بجدة.
٥ ـ التوحيد مفتاح دعوة الرسول ـ مكتبة الصديق بالطائف.
٦ ـ الإسلام وعلاقته بالشرائع الأخرى ـ مكتبة الفاروق بالطائف.
٧ ـ دعوة كريمة ـ مكتبة الفاروق بالطائف.
٨ ـ مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ـ مكتبة السوادي بجدة.
٩ ـ تفسير البغوي (١ ـ ٨) تحقيق بالاشتراك ـ دار طيبة بالرياض.
١٠ ـ تزيين العبارة لتحسين الإشارة، تحقيق ـ مكتبة الفاروق.
١١ ـ خلاف الأمة في العبادات لابن تيمية، تحقيق ـ مكتبة الفاروق.
١٢ ـ إمام الكلام فيما يتعلق بالقراءة خلف الإمام، للكنوي، تحقيق ـ مكتبة السوادي.
١٣ ـ الوصية الكبرىٰ، لابن تيمية. تحقيق بالاشتراك ـ مكتبة الفاروق.
١٤ ـ محاضرات في المعاملات المالية، لطلاب الدراسات الإسلامية (الطائف).
١٥ ـ فصول من فقه العبادات، محاضرات لطلاب الدراسات الإسلامية (الطائف).
١٦ ـ المعاهدات الدولية، دراسة مقارنة ـ مطبوعات رابطة العالم الإسلامي.
١٧ ـ أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام الشيباني، دار المعالي، الأردن.
١٨ ـ حجة الله البالغة للدّهلوي، تحقيق وتخريج، مكتبة الكوثر بالرياض.
١٩ ـ أثر العقيدة الإسلامية في اختفاء الجريمة ـ دار الأندلس الخضراء بجدة.
٢٠ ـ القواعد الكبرىٰ، للعز بن عبدالسلام (تحقيق بالاشتراك) دار القلم بدمشق.

تحت الطبع

١ ـ الخراج لأبي يوسف (تحقيق وتخريج)، مكتبة العبيكان بالرياض.
٢ ـ شرح الفقه الأكبر، لملا علي القارىء (تحقيق).
٣ ـ السفارة والسفراء في الإسلام ـ رابطة العالم الإسلامي.
٤ ـ تبصرة الحكام، لابن فرحون المالكي، (تحقيق).
٥ ـ تربية المراهق في الإسلام.
٦ ـ الحوار الإسلامي المسيحي: (الجذور التاريخية والعقائدية لفكرة التقارب بين الأديان).
٧ ـ وثائق ونصوص في الحوار الإسلامي المسيحي ـ دار الداعي بالرياض.
٨ ـ معجم المصطلحات في العقيدة الإسلامية.
٩ ـ أحكام القرآن لأبي بكر الجصّاص (تحقيق).
١٠ ـ الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (تحقيق) (دار الأندلس الخضراء، جدة).